الغزو العربي لشمال إفريقيا

بين نبالة النص ودناءة الممارسة

تأليف الأستاذ: أحمد الزاهد

أعده للنشر وصففه لمؤسسة تاوالت
تامغناست

الغزو العربي لشمال إفريقيا

بين نبالة النص ودناءة الممارسة

تأليف الأستاذ: أحمد الزاهد

مقدمة

"إن تاريخ المغرب الكبير، عريض طويل، ضارب في الأزمنة، متغلغل في أعماق الدهور، خط على تراب هذه الأرض بعرق سكانها ودمائهم، ومن جهودهم وتضحياتهم كان هذا الميراث الحضاري الذي وسم الأرض وأهلها بالميزات الكريمة، وبالخاصيات التي عرفت لها على مر السنين.

ولو ساغ لأحد أن يلخص كنه هذا التاريخ في كلمة مختصرة ودالة لقال : إنه هو الانكباب على العمل في الأرض، والوقوف في وجه الأجنبي الدخيل."(1) على امتداد زمني يفوق الثلاثين قرنا.

" لكن مؤرخي العرب، ولست أستثني من بينهم الإمام ابن خلدون، قد تهاونوا بأمر ذلك التاريخ المجيد، فلم يذكروه في أسفارهم إلا منذ حلت برحاب المغرب فرسان العرب الفاتحين وبذلك أضاعوا لهذه البلاد عشرين قرنا من التاريخ لا يعرجون

(1) - محمد التازي سعود، كتاب "حرب يوغرطة" الطبعة الثانية 1981، مطبعة السلام، مقدمة بقلم عبد الهادي التازي.

(2) - أحمد توفيق المدني "قرطاجنة في أربعة عصور" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص7.

عليها إلا استطرادا ولا يخصونها بأدنى عناية واهتمام"(2).

لذلك ارتأيت أن أستهل بحثي، بفصل تمهيدي، حاولت أن أتلمس فيه أهم ملامح تاريخ المغرب القديم، وركزت فيه بالخصوص على مختلف التدخلات الخارجية والحملات الاستعمارية التي توالت على المغرب منذ بداية التاريخ، والموقف البطولي والثوري لسكانه الرافضين دوما الرضوخ للأجنبي ولسلطته، والمتعشقين حتى الثمالة للحرية والاستقلال والكرامة.

وما جعلني أعرج على هذه الصفحات الخالدة من أمجاد المغاربة في تاريخهم القديم، هو أن تاريخ المغرب بشكل عام سلسلة متصلة بقوة، يرتبط فيها الحدث السابق بالحدث اللاحق عبر تلقائية غريبة، لا ندري أهي من أقدار التاريخ ومشيئته، أم هي من صنع وتصميم المغاربة وتحكمهم في زمام أقدار هذا التاريخ نفسه.

فقد "تعاقب على المغرب دخلاء كثيرون، يخضع بسهولة المتغلب اللاحق المتغلب السابق، ثم يواجه الصعوبة الحقيقية ويعجز عن إخضاع السكان الأصليين، فتظهر الأحداث وكأنها تعيد نفسها"(1).

كما أن اطلاعنا على هذه النبرات من تاريخ المغرب القديم، يجعلنا نحسن فهم الموضوع الرئيسي للبحث، الذي نتحدث فيه عن تجاوزات الفتح العربي الإسلامي ببلاد المغرب، لأننا نتحدث

(1) - عبد الله العروي، "مجمل تاريخ المغرب"، المركز الثافي العربي، الطبعة الثالثة 1992، ص 98.

فـي الفصل التمهيدي عـن طبيعة المغاربـة وميزاتهم، طريقة تعاملهم مع الأجنبـي على امتداد التاريـخ. العوامل التي تؤدي بهم إلى الثورة .... واسـترخاصهم للغالي والنفيس في سـبيل مجد الوطن وحرية الذات...

وكل هذا، يعكسه التاريخ كمرآة على الفترة التي سندرسها، بحيث أن الكثير من الأحداث والوقائع تعيد نفسيا بشكل غريب من خلال عمق التراكم التاريخي المغربي:

فقـد كون المغرب سـيادته منـذ فجر التاريـخ، حيث تفاعلت الحضـارة المغربيـة مع الحضـارة الفرعونيـة والحضـارة الفنيقية والرومانيـة، والحضارة الشـرقية الإسـلامية وحافـظ خلال تلك الفترة على قوته الفكرية واسـتقلاله السياسـي ودافع المغاربة عـن وطنهـم بدمائهـم: (يوغرطـن _ تاكفارينـاس _ إيديمـون _ فيرمـوس _ غبلـون _ أنطـالاس _ كوتزيناس _ ايفيسـداياس _ كسـيلة _ الكاهنة (داهيا) _ ميسـرة المطغري _ عبد الحميد الزناتـي _ محمـد عبـد الكـريم الخطابـي _ موحـا حموالزياني _ عسوباسـلام ...) كل هذه الأسـماء كانت وفية لمبدأ المغاربة : الحرية والاستقلال. فأشـعلت ثورات على المستعمرين لم تخمد نارهـا حتى تحقيق هـذا المبدأ. فسـرعان ما كان المغربـة يعلنون انفصالهـم عن الدخلاء: الفنيقيـون _ القرطاجيون _ الرومان _ الوندال _ البيزانطيون .... وسـرعان ما أعلنوا أيضا اسـتقلالهم عن المشـرق، مباشرة بعد اعتناقهم الإسلام واحتفاظهم به في إطار دويلات مستقلة عن الخلافة المركزية في المشرق: (بورغواطة _ بنوعصام _ مكناسـة _ بنومدرار_ بنويفرن _ مغراوة _ بنوزيري _

بنوحمـاد...) أوفي إطار إمبراطوريات كبرى: (المرابطون _ الموحدون _ المرينيون ...).

ولـم يحافـظ المغاربة على كيانهـم المسـتقل اعتمادا على الجانـب العسـكري فقط بل واجهـوا المسـتعمر مواجهة دينية وثقافية وفكرية.

" فهـل من المجازفـة أن يرى المؤرخ، ذوالنظرة الشـمولية في " الدوناتية " سابقة تفسر بوضوح ما حدث في إفريقيا الشمالية، بين الإسلام الرسمي الأموي وبين الخوارج المغاربة؟ الم يكن سبب الانشـقاق سياسـيا قبل أن يكون دينيا في الحالات الثلاث: تنصر الأمازيغيين إذ كان القياصرة وثنيين، وانشـقاقهم عن الكنيسة الرسمية إذ تنصر القياصرة، واتباعهم مذهب الخوارج ثورة منهم علـى سـنية الأمويـين ؟ ثم إن من حقنـا ان نتسـاءل: هل اتخذ المغاربـة المالكيـة مذهبا لهم على سـبيل المصادفة فقط؟ ولم انفردوا بها أو كادوا ؟ "(1).

بعد ذلك انتقلت إلى الموضوع الرئيسـي الذي عنونته "الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب بين نبالة النص ودناءة الممارسة."

ومـن خـلال العنوان نفهـم التمييـز الواضح الـذي تعمدت إثارته، بين النص الإسـلامي النبيل في مفهوم الفتح، وشروطه وأخلاقياته وطريقة التعامل مع سـكان البلاد المفتوحة ومفهوم الدعـوة ونظرة الإسـلام للعمل العسـكري ... وبين الممارسـات

(1) - محمـد شـفيق، "لمحة عن ثلاثة وثلاثـين قرنا من تاريـخ الأمازيغيين " ، دار الكرم، 1989، ص 45.

الدنيئة التي سلكها بعض قادة الفتح ومن بعدهم ولاة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية في المغرب. فحاولت أن أقف عند تجاوزات الفاتحين والولاة كأشخاص يشتغلون في إطار جهاز حكومي عام، على الكثير من المستويات: العسكرية، الأخلاقية، الإنسانية، الاقتصادية...

ثم رد المغاربة على هذه التجاوزات من خل ثورات عديدة انتهت بثورة الخوارج المغاربة الذين أعلنوا الاستقلال النهائي والتام للمغرب عن المشرق. وقد حاولت أن أعكس كذلك، الفصل الذي جعلته في العنوان بين النص الإسلامي وبين ممارسات الفاتحين والولاة، على مستوى المضمون، بحيث ميزت بين " الإسلام الحقيقي " و" الإسلام التاريخي "، "فالأول هو وحده حقيقي ويجب إنقاذه بأي ثمن، والثاني ليس إلا ظاهريا ن يمكن إدانته دون ضرر كبير"(1) كما حاولت أن أكون موضوعيا وباحثا ناقدا من خلال نزع صفة القداسة على هذا النوع من المواضيع، خصوصا و" قد عمل علم كتابة التاريخ " Historiographies " العربي بمثابة دفاع أكثر مما عمل بمثابة بحث حقيقي "(2) " فوراء ملحمة الغزوات والفتوحات، التي كانت تسيطر على الأفكار إعجابا وذهولا، كان يتميز تفلت أساس، أصبح هذا التفلت موطنا للجريمة"(3) وهذا ما يشكل صلب بحثي.

(1) - عبد الله العري، "الإديولوجية العربية المعاصرة" ترجمة محمد عيتابي، الطبعة الأولى، 1970 دار الحقيقة، بيروت، ص 78.

(2) - نفسه، ص 143.

(3) - نفسه، ص 224.

ومن جانب آخر، عملت على تبرئة الإسلام من هذه التجاوزات التي واكبت الفتوحات في بلاد المغرب، ثم تلك التجاوزات التي ارتكبها الولاة فيما بعد، لأنها تجاوزات أشخاص وأنظمة بعيدة عن مفاهيم الإسلام ومبادئه، خصوصا وأن الدولة الأموية، بميزاتها البعيدة عن حقيقة الإسلام هي التي احتضنت الفتوحات في بلاد المغرب، ثم بعد ذلك ركزت سلطتها الإدارية فيه بعد إنهاء مرحلة الفتح. وهذه التجاوزات يستغلها أعداء الإسلام لتشويه التاريخ الإسلامي بشكل عام، لذلك ينبغي بل ويتحتم علينا أن نبحث وندافع عن الإسلام الحقيقي الطاهر، وندين به وانطلاقا منه التجاوزات الكثيرة التي يزخر بها الإسلام التاريخي.

المبحث الثالث التجاوزات:

" يتصف فتح المغرب _ دون الفتوحات العربية الأخرى _ بالصعوبة الشديدة والمقاومة العنيدة من جانب أهل البلاد وهم البربر"(1). لاسيما أن العرب كانوا يطرقون الأبواب مصحوبين بقضهم وقضيضهم، على حد تعبير ابن عبد الحكم _ مستعدين للقتال ظاهري الرغبة في السبي والغنم فلا غرابة والحالة تلك أن ينهض الأهالي لرد ما يرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد(2) خصوصا وأن " العصبيات العربية شغلت جانبا عظيما من اهتمام حكام المغرب وصرفتهم عن الاهتمام الواجب بفتح البلاد وإسلام أهلها... وجعلت البلاد مسرحا لحوادث شتى من الاضطهاد والظلم والمصادرة... ولا ينبغي أن ننسى الأخطاء الشديدة في الحرب والسياسة التي وقع فيها جند العرب وقادتهم"(3).

على المستوى العسكري:

بتصفحنا لمصادر الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب تصادفنا مجموعة من النصوص التي تتحدث عن تجاوزات عسكرية واضحة وقع فيها الكثير من قادة الفتح وسنحاول

(1) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الجزء الأول، منشأة المعارف، 1979، ص 129.

(2) - محمد شفيق، مرجع سابق، ص 43.

(3) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 269.

الوقوف عند أهمها. ويبدو أن " وليم مرسـيـيه " كان على صواب عندمـا قـال: " لـم تعد صورة جيـوش صدر الإسـلام وهي تغدو مدفوعة بحماسـة بالغة، وبإحدى اليدين السيف، وباليد الأخرى القرآن لتخضع الشـعوب للدين الجديد، نقول إن هذه الصورة لم تعـد مقبولة وليسـت إلا من خيال الشـعراء ... فخـلال التاريخ يبـدو لنا البدو بمظهر قلـة التقوى، وبالعجز تقريبـا عن الارتفاع إلـى عقيدة التوحيد لقلة ميلهم إلى الاستشـهاد في سـبيل مثل أعلى. ومن المؤكد قطعا أنه وجد بين قادة الحرب في الفتوح الإسلامية مؤمنون مخلصون وجنود لله ورسوله صادقون"(1).

حسـب وليم مرسـييه إذن، وجد ضمن قـادة الفتح مؤمنون مخلصون، كما وجد ضمنهم أيضا من تجاوز مبادئ الإسـلام في الجانب العسكري.

قرأنا لابن عذارى ما يلي:

" ثـم وجه ابن حديج عبد الملك بن مـروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عددا كثيرا حتى فتحها عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، وأخذ جميع ما كان في المدينة وحمل ذلك كله إلى معاوية بن حديج"(2).

كما قرأنا له وهو يتحدث عن بعض غزوات عقبة ما يلي:

" فهزمهم، وقتلهم تقتيلا "(3).

(1) - ألفريد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 79.

(2) - بن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ص 16.

(3) - نفسه، ص 24.

" وغزوتـه إلـى مدينة باغايـة ... فقاتلهم قتلا ذريعـا "(1). " فمضى إلى مدينة المنسـتير ... فقاتلهم قتالا شديدا، حتى ظن أنه الفناء "(2).

" ووصـل عقبـة بن نافع الفهـري إلى إفريقيـة ... فافتتحها ودخلها ووضع السـيف في أهلها"(3). " وأوغـل في الغرب يقتل ويأسر أمة بعد أمة، وطائفة بعد طائفة"(4).

" وغزوته أيضا للبربر بالسـوس الأدنـى ... فهزمهم وأفناهم وبـث الخيـل في بلادهـم فافترقت فـي طلبهم إلـى كل موضع هربـوا إليـه"(5). " وغزوته أيضا للسـوس الأقصـى ... فقتلهم قتالا ما سـمع أهل المغرب بمثله حتى هزمهم وقتل منهم خلقا عظيما"(6).

ونقـف عند هذا النص للرقيق القيرواني: " فرحل من طنجة إلـى السـوس الأدنـى ... فانتهى إلـى أوائلهم فتلقـوه في عدة عظيمـة وقتلهم قتـلا ذريعا وهرب بقيتهـم، وافترقت خيله في طلبهم إلى كل موضع هربوا إليه من الأرض"(7).

(1) - نفسه، ص 24.

(2) - نفسه، ص 24.

(3) - نفسه، ص 19.

(4) - نفسه، ص 26.

(5) - نفسه، ص 27.

(5) - نفسه، ص 27.

إبراهيم بن القاسـم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلـي الزيـدان وعز الدين عمر موسـى، دار الغرب الإسـلامي، الطبعة الأولى، 1990، ص 14 – ص 15.

هذه إذن مجموعة نصوص، نقلناها عن مصادر فتح بلاد المغرب، نصوص تدين بشكل واضح سياسة عقبة في بلاد المغرب وتعامله مع سكانه، " فلم يكن نشر الإسلام غاية واضحة في ذهن عقبة، إذ لو كان يطلب هذا، فليست تلك هي السبيل التي تؤدي إلى إدراك هذه الغاية، إنما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الإسلام، وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية، ... أما عقبة فكان ينقض على المدائن محاربا مقاتلا، ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم"(1). فكان عسكريا عنيفا في سياسته، ذلك العنف الذي يعبر عنه ابن الأثير تعبيرا رائعا عندما يقول: " وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا "(2).

" بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مر به من البلاد نفرا يعلم أهله الإسلام "(3) " والواقع أن عقبة بن نافع لم يكن لديه تلك النظرة السياسية الهادئة التي كانت لأبي المهاجر دينار "(4). " الذي ترك سياسة العنف مع البربر ولجأ إلى سياسة اللين والمداراة معهم محاولا استمالتهم عن طريق نشر الإسلام بينهم، وقد نجحت هذه السياسة نجاحا كبيرا"(5) فعقبة إنما كان شديد الشبه بفرسان الصليبيين الذين كانوا يخرجون من دورهم

(1) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 203.
(2) - سعد زغلول عبد الحميد، مرجع سابق، ص 203.
(3) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 203.
(4) - صابر محمد دياب، مرجع سابق، ص 85.
(5) - أحمد المختار العبادي، مرجع سابق، ص 41.

ويعبرون البحر إلى غير غاية معلومة فما يدري أحدهم أخلاص بيت المقدس أراد أم مجرد قتال المسلمين أم كسب الثروة والعودة بالمال".(1) وهذه الأمور التي بدرت منه، سواء العنف الشديد، أو العسكرية الصارمة الجارفة انتقده فيها أبو المهاجر بقوله:

" بئس ما صنعت، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب "(2) " غير أن عقبة لم يأخذ نصيحة أبا المهاجر مأخذ الجد، فما لبث مخططه الجديد أن تبلور بالخروج على النطاق المحلي المألوف الذي كان طابع الأعمال العسكرية في عهد أبي المهاجر"(3).

غير أن خطأ عقبة الفادح ليس في عدم سماعه لنصيحة أبي المهاجر " ولا في غزوه لقبائل أعلنت إسلامها وإنما في منهجه وأسلوب تعامله وما وراءه من أهواء المجد الشخصي، فقد رفض مصالحة البربر وتوخي سياسة اللين والمودة إزاءهم، بل إن الأمر بلغ به إلى حد التخلي عن تلك القاعدة التي عمل بها بعض قادة المسلمين والمتمثلة في اعذار الطرف المقابل وجعله يختار واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب ... ومن هنا فإن عقبة تمشيا مع نوازعه الذاتية، فضل مسلك القوة واستعمال العنف ولم يعرف عنه أنه جنح في حق البربر إلى السلم ماعدا ما ذكر عن بلاد دكالة من أنه عرض عليها الإسلام

(1) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص203.
(2) - ابن عذاري، مرجع سابق، ص 29.
(3) - ابراهيم بيضون، " ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري "، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص 179.

فرفضت فقاتلها. وقد أودى ذلك بعدد كبير من أصحابه، وكان من الممكن تفادي هذه الخسارة الجسيمة لو تخلى عقبة عن العناد والأسلوب الذاتي"(1).

" وهكذا أضاع على نفسه فرصة كبرى، واستعاض عن ذلك بحرب شعواء هوجاء شنها على أهل البلاد، بلا غرض محدود ولا نتيجة ترجى ولا معنى يفهم فضاع جهده هباء"(2). بل جنى على نفسه بأن أيقظ في السكان روح الثورة وكانت نهايته على يدهم.

ومقتل عقبة على يد البربر، ستؤدي إلى تجاوزات أخرى، سيقترفها زهر بن قيس البلوي، الذي تشير كل الدلائل إلى أن تدخله في بلاد المغرب كان بدافع انتقامي صرف، فعلى هذا الأساس كان اختيار عبد الملك بن مروان له بحيث قال: " لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا" فاستشار مع وزرائه، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي وقالوا: " هذا صاحب عقبة، وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه " .

" كما يفهم من النصوص أن غزوة زهير هذه كانت حملة تأديبية أولا وقبل كل شيء، فبعد أن انتقم زهير لمقتل عقبة واخذ بثأره، عاد نحو المشرق في طريقه إلى مصر."(3) "بعد أن

(1) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 181.

(2) - ابن عذاري، مرجع سابق، ص 31.

(3) - سعد زغلول، مرجع سابق، ص 210.

أثخن قتلا في أهل المغرب ففزع منه أهل إفريقية واشتد خوفهم ولجوا إلى الحصون والقلاع "(1).

ويبدو أن موسى بن نصير كان وفيا هو الآخر لهذه السياسة العسكرية، بحيث خرج " غازيا من إفريقية إلى طنجة، فوجد البربر قد هربوا إلى الغرب خوفا من العرب فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا وسبى منهم سبيا كثيرا، حتى بلغ السوس الأدنى وهو بلاد درعة فلما رأى البربر ما نزل بهم، استأمنوا وأطاعوا"(2). وقبل كل هؤلاء القادة، كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد دشن هذه الصرامة العسكرية، في أولى السرايا التي وجهت نحو بلاد المغرب، بحيث انه " لما وصلت السرية إلى طرابلس، استولت على مركب كان راسيا بالقرب منها وأسر المسلمون من فيه، حتى أدركهم عبد الله بن سعد بجموع جيشه فأمر بقتل الأسرى"(3). فلم تزد حملته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثرا كبيرا"(4).

أعتقد أنه، لا يمكن إطلاقا، لأي باحث أن يمر على هذه التجاوزات العسكرية مر الكرام، فالواقع أن المؤسسة العسكرية، أثناء حملات الفتح، طغت بشكل رهيب على مؤسسة الدعوة، وهذا يتناقض بطبيعة الحال مع مفهوم الفتح وجوهره وشروطه وقوانينه وأخلاقياته التي برزت بشكل واضح خلال الفتوحات

(1) - الرقيق القيرواني، مرجع سابق، ص 20.

(2) - ابن عذاري، رجع سابق، ص 42 .

(3) - عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص156.

(4) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 106.

التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده الخلفاء الراشدون، لكن بروز هذه النزعة العسكرية العنيفة أمر طبيعي، عند قادة الفتح، لأن الإطار المرجعي الذي احتضن الفتوحات في بلاد المغرب هو الدولة الأموية " التي نحت في مسارها التنظيمي شكلا انقلابيا تطورت معه من الخلافة إلى الملكية أومن التيوقراطية الدينية إلى الأوتوقراطية الفردية وتعدت هذه التغييرات مضمون الحكم إلى مظاهره التي أصبحت بدورها زمنية مقتبسة من النظام البيزنطي بوجه خاص ... ومن ناحية أخرى فإن معاوية استولى على الحكم في ظل أجواء غير طبيعية، أي أن السلطة لم تأت إليه انتخابية أو أجماعية، بل جاءته عن طريق القوة وذلك في حرب أهلية دامية، ومن الواضح أن أي نظام يشاد على السيف لا بد أن يحميه السلاح نفسه أو كان عرضة للانهيار"(1).

فالطابع العسكري إذن كان من أكثر سمات هذه الدولة بروزا فقد زامنها في جميع المراحل من الولادة التي تمت بالقوة إلى النهج القمعي في التعامل مع المعارضة وخصوم النظام (الحجاج) وأخيرا إلى السقوط الذي تم بالقوة أيضا"(2).

" غير أن تكوين هذه المؤسسة (الجيش)، تم في إطار النظام القبلي التقليدي ... وكانت الخطورة في ذلك إن الجيش الأموي تحول مع الوقت إلى طبقة عسكرية تمتعت بامتيازات خاصة

(1) - إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص 149.

(2) - نفسه، ص 150.

ومتفوقة وتحركت وفق مصلحتها الاقتصادية، حتى أن العمليات الحربية التي تم تنفيذها في العصر الأموي، كانت انعكاسا لهذه المؤسسة، فلم تعد حركة الفتح قضية مبدئية كما كان الحال بالنسبة لمقاتلي العصر الأول من الإسلام، بعد أن افتقدت الكثير من مضامينها الإنسانية حيث لجأ الخلفاء والولاة إلى تسييس الفتوح وإخضاعها لاعتبارات مرحلية كامتصاص النقمة أو ارواء رغبات الجند المتعطشين للمال وللسيطرة ومن ثمة إبعادهم عن التدخل في شؤون الحكم فضلا عن النزعة الإمبراطورية لدى الخلفاء الأمويين وسعيهم إلى إقامة دولة عظمى محورها العنصر العربي الذي اقتصرت عليه القوة العسكرية"(1). وهذا ما جعل الفتوحات تستأثر بتشجيع الخليفة ومعاونيه، الذين وجدوا فيها تغطية لأخطائهم وتجاوزاتهم ومن ثمة إسكاتا للضجيج والانتقاد حولهم، ومن هؤلاء كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكم مصر الذي تحمس لسياسة التوسع هذه"(2).

وهذا البروز القوي للمؤسسة العسكرية، هو الذي جعل (فون فلوتن) يتطرف في موقفه " ليفرغ الفتوحات من أية مضامين إنسانية أو تبشيرية، واصفا إياها بالاحتلال حيث يعيش شعب منتصر على حساب آخر مغلوب"(3).

(1) - إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص 149.

(2) - نفسه، ص 83-82.

(3) - إبراهيم بيضون، " الدولة الأموية والمعارضة، مدخل إلى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فون فلوتن "، دار الحداثة، الطبعة الأولى، 1980، ص 12.

على المستوى العنصري والأخلاقي والإنساني :

رأينـا فيمـا سـبق، أن الدولـة الأمويـة _ باعتبار أنهـا الجهاز المحتضن للفتوحات في بلاد المغرب _ كانت دولة عسكرية بامتياز، ومـا زاد في خطورة هذه الميزة أنهـا كانت " دولة عربية اكثر منها إسلامية "(1).

" وليـس هنـاك ما يدين هـذه النزعة العربية لـدى الأمويين، وهم في الأصل احد فروع القبيلة القيسـية الشـهيرة (قريش)، ولكـن الخلل الذي أصاب دولتهم منذ نشـأتها هـو عدم التأقلم مـع المتغيـرات الجديدة التـي كان مطلوبـا من هـذه الأخيرة أن تكـون في مركز الريادة الدائمة لها، وليس العكس، إذ أنها بقيت محتفظـة بطابعهـا المحلي والقبلي دون اسـتيعاب مـا أحدثته العقيـدة الإسـلامية وحركة الفتـوح التي أفرزتهـا، من انقلاب جذري وحاسـم في تاريـخ المنطقة ." فانفـردت خلافة الأمويين بشـخصيتها القومية دون ما سـبقها أو جـاء بعدها من الدول الإسلامية(2)".

ويرى (فلوتـن)، كغيره من المؤرخـين أو معظمهم بأن الطابع

(1) - أبو الحسن الندوي، " رجال الفكر والدعوة في الإسلام "، دار القلم، الطبعة الخامسة، ص 33.

(2) - نفسه، ص 360.

العـام لدولة الأمويين إنما كان دنيويا بـكل تفاصيله، وهو نتيجة لذلـك الاختلاف في رؤيـة الخلفاء السياسـية والاقتصادية وفي علاقـات المجتمع المتنافر بعناصره وطبقاته وكذلك في تسـييس الفتـوح الخاضعـة فـي المقـام الأول لمشـيئة الـولاة والمفرغـة مـن المضمـون الجهادي الـذي كان أحـد العوامل الأكثـر تحريكا للفتوحات الراشدية"(1). "لذلك فإن الفتوحات الأموية تطبعت بشـخصيات الخلفاء المفتونة إلى حد كبيـر بالنموذج القيصري الذي انتقل إلى حياة القصور في دمشـق" كما تطبع قادة الفتح بميـزات الدولـة الأموية : العنصرية العربية _ الفسـاد الأخلاقي والإداري والدنيويـة المسـتمدة مـن تقليـد النمـوذج القيصـري البيزنطي، ولا حاجة لنا هنا إلى التذكير بالماضي السـيئ لأغلب هـؤلاء القادة، وسـنعطي مثالين فقط، فقد عـرف عن عبد الله بن سـعد أنه كان يكذب على رسـول الله صلى الله عليه وسلم في كتابة الوحي، أما موسـى بن نصير فقد اشـتهر باختلاساته الكبيرة لخراج مصر.

يـورد ابن عبد الحكم فـي كتابه " فتوح إفريقيـة والأندلس "، نصـا، نراه مهما جدا لذلك "فخلف عقبة بن نافع جيشـه هناك ... ثم سار بنفسه ومن خف معه، أربع مائة فارس وأربع مائة بعير ... حتـى قـدم ودان فافتتحها، واخذ ملكهم فجـدع أذنه، فقال: لم فعلت هـذا بي؟ وقد عاهدتني، فقال عقبـة: فعلت هذا بك، أدبا لك، إذا مسسـت أذنـك ذكرته، فلم تحارب العرب. واسـتخرج منهم ما كان بسـر فرضه عليهم ثلاثمائة رأس وسـتين رأسا ثم

(1) - إبراهيم بيضون، "الدولة الأموية والمعارضة ". ص 13.

سألهم عقبة هل من ورائكم أحد؟ فقيل له جرمة وهي مدينة فزان العظمى فسار إليها ثماني ليال من ودان، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه فأمشوه، راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعما فجعل يبصق الدم، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا ووجه عقبة الرحل من يومه ذلك إلى المشرق.

ثم مضى ... فسألهم هل من ورائكم أحد؟ قالوا نعم، أهل خاوار ... فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلما انتهى تحصنوا فحاصرهم شهرا فلم يستطع لهم شيئا، فمضى أمامه إلى قصور خوار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها فقطع أصبعه فقال: لم فعلت هذا بي؟ قال أدبا لك إذا نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا"(1).

ونقرأ لابن عبد الحكم كذلك ما يلي: " ثم رجع عقبة إلى خاوار من غير طريقه التي كان اقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم وقتل مقاتلتهم"(2).

كما لا يغيب علينا، تصرف عقبة مع كسيلة، الذي لا يخلو

(1) - ابن عبد الحكم، " فتوح إفريقية والأندلس ". ص 52-51.

(2) - نفسه، ص 53.

من إهانة واضحة صادرة عن عنصرية جامحة، ونعلم أن كسيلة ثبت إسلامه منذ ولاية أبي المهاجر، وهو زعيم قومه، ورغم ذلك، فقد تعمد عقبة الإساءة إليه، بحيث أتى بغنم فأمره بذبحها وسلخها مع السالخين، فقال كسيلة: " هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة، فشتمه وأمره بسلخها، ففعل"(1).

وأعتقد أن أي باحث موضوعي سيفسر هذه التصرفات التي صدرت عن عقبة على أنها تجاوزا عنصريا، من قائد مسلم جاء حاملا رسالة نبيلة ليدعو الناس ويرغبهم ويكسبهم إلى جانب الإسلام، وإلى جانب الدولة الإسلامية الفتية، لكن هذه الرسالة غابت تماما وطغت عليها. " خصال عقبة التي ضل كثيرا من المؤرخين يتجاهلونها لما فيها من الإساءة إلى شخصه فهو من الذين تنزع بهم أنفسهم إلى إذلال الآخرين والتصرف معهم بشكل لا يخلو من عنصرية والذي يبدو من هذه التصرفات أن عقبة ذو نزعة سادية واضحة"(2) أبعدته كل البعد عن القائد المسلم المثالي الكفيل بدعوة الناس إلى الدين الجديد.

ولم تغب هذه التصرفات العنصرية عن موسى ابن نصير الذي " فتح سجومة وقتل ملوكها وأمر أولاد عقبة عياضا وعثمان وأبا عبدة أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم"(3) كما أنه لما خرج " من افريقية غازيا إلى طنجة، وجد البربر قد هربوا من المغرب خوفا

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب ج 1، ص 29.

(2) - محمد المختار العرباوي، البربر عرب قدامى، ص 29.

(3) - ابن عذاري، البيان المغرب ج 1، ص 41.

من العرب، فتبعهم وقتلهم قتلا فاحشا وسبى منهم سبيا كثيرا..."(1). " فكان قدوم موسى افريقية وما حولها مخوفا أي مرعبا لأهلها"(2). "لأنه طفق يشتد على المغاربة، بدلا من أن يتألف قلوبهم ويصانعهم، كسبا لمودتهم إلى جانب دولة بني أمية والدين الحنيف، ولذلك ارتاعوا منه وشكوا فيه، بل امتد شكهم إلى الحاكم الذي يمثله موسى بن نصير"(3).

كما أن حسان " بعد أن استقر في القيروان ... فكر في بناء مدينة ... كان على البربر أيضا أن يساهموا في البناء، فتقرر أن يكون جلب الخشب اللازم لصناعة المراكب من غابات الجبال الداخلية، نوعا من التكليف يقومون به، ونظن أن ذلك العمل كان نوعا من الخدمة أشبه بالجندية الإلزامية، إذ يقول نص للبكري: " ليكون ذلك جاريا عليهم إلى آخر الدهر "(4).

هذا فيما يخص المظاهر العنصرية التي جسدها بعض قادة الفتح، ومما يلفت النظر من جانب آخر، هو هذه الأعداد الضخمة والخيالية التي تزخر بها المصادر والمتعلقة بالسبي، هذه العملية التي كان عمرو بن العاص قد دشنها منذ الغزوات الأولى في بلاد المغرب بعد فتح مصر، بحيث أنه " لم يكد يفرغ من معاهدة الإسكندرية، حتى سار في جنده يريد أولى بلاد المغرب " ، " وهي مدينة أنطابلس، فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة ألف دينار،

(1) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 39.

(2) - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 2، مطبعة المعرفة بيروت، ص 51-50.

(3) - صابر محمد دياب حسن، بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، ص 135.

(4) - سعد زغلول، مرجع سابق، ص 232.

يبيعون فيها من أبنائهم ما أحبوا بيعه"(1)، والنص يتضح منه تماما أن المقصود هم أبناء وبنات اللواتيين، والبنات بصفة خاصة فيما نرى، يؤيد ذلك ما كتبه فيما بعد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز_ الذي راعه الأمر_ في اللواتيات، " أن من كانت عنده لواتية ليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها " وهذا يعني أن دفع البنات في جزية لواتة ظل معمولا به إلى أواخر القرن الأول الهجري"(2).

وهنا أرى أنه من الضروري إيراد الكتاب الذي بعثه خالد بن الوليد إلى الخليفة أبي بكر ليطلعه على الاتفاق الذي عقده مع أهل الحيرة في إطار دفع الجزية لنقف أمام القيم النبيلة والأخلاق الإسلامية الحقة في التعامل مع سكان البلاد المفتوحة. يقول خالد بن الوليد: " إن خليفة رسول الله أمرني أن أسير بعد منصرفي من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم، بأن ادعوهم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله عليه السلام وأبشرهم بالجنة وأندرهم من النار فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وإني انتهيت إلى الحيرة. فخرج إلي إياس بن قبيصة الطائي (آخر حكام الحيرة التابعين للفرس) في أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم وإني دعوتهم إلى الله ورسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب. فقالوا لا حاجة لنا لحربك ولكن صالحنا على ما صالحت من غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية، وإني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل.

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 29.

(2) - سعد زغلول، مرجع سابق، ص 133.

ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانه ألف رجل. فأخرجهم من العدة فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف. فصالحوني على ستين ألفا. وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل. أن لا يحالفوا ولا يعينوا كافرا على سلم لا من العرب ولا من العجم. فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا آمان. وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهدة وعلينا المنع لهم ... وجعلت أيما شيخا ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت المسلمين بالنفقة على عيالهم. وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم ... ودفع ثمنه إلى صاحبه ولهم كل ما لبسوا من الزي إلا زي الحرب"(1).

هذا النص يبين طبيعة الفتوحات الراشدية، حيث حضور مؤسسة الدعوة، مراقبة الخلفاء عن كثب لسير الفتوحات، التعامل الأخلاقي مع السكان، أخلاقيات المطالبة بالجزية مع مراعاة أحوال الناس....

بعد هذه الوقفة القصيرة مع أبي بكر الصديق، ومع خالد بن الوليد، نعود إلى موضوع السبي، الذي أشرنا سابقا أن أعداده كانت ضخمة، وسنحاول الوقوف عند ذلك انطلاقا من هذه النصوص:

فهذا نص للرقيق وهو يتحدث عن عقبة: " ومضى كذلك

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 47. نقلا عن أبي يوسف: " كتاب الخراج ". ص85-84

حتى دخل السوس الأقصى، واجتمع البربر في عدد لا يحصى فلقيهم فقاتلهم قتالا شديدا ما سمع أهل المغرب بمثله، فقتل منهم خلقا عظيما، وأصاب نساء، لم ير الناس في الدنيا مثلهن فقيل، إن الجارية منهن كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو نحوها"(1).

أما حسان بن النعمان فلما قدم على عبد العزيز بن مروان " أهدى إليه مائتي جارية من خيار ما معه، ويقال إنه كان معه من السبي خمسة وثلاثين ألف رأس مما لم يدخل المشرق مثله ... فانتخب منها عبد العزيز ما أحب..."(2).

" ويقال بل أخذ منه عبد العزيز كل ما كان معه من السبي، وكان قد قدم معه من وصائف البربر بشيء لم ير مثله جمالا، فكان نصيب الشاعر يقول حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسان، مائتي جارية منها ما يقام بألف دينار"(3).

" أما عن حملات موسى في المغرب الأوسط والأقصى، فقد نجحت نجاحا باهرا وكانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية كما يقال، فالكتاب لا يتكلمون إلا عن أعداد خيالية من السبي والأسرى تصل في بعض المدن إلى 100 ألف رأس وأكثر"(4).

فالرواية تقول أن " موسى بن نصير حين غزا المغرب بعث ابنه

(1) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 15.

(2) - نفسه، ص 37-36.

(3) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 65.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 241.

مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف، وبعث ابن أخيه في جيش آخر فأصاب مائة ألف ... فلما أتى كتابه بذلك قال الناس: ابن نصير والله أحمق من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين في الخمس، فبلغ ذلك موسى بن نصير فقال: " ليبعثوا من يقبض لهم عشرين ألفا"(1).

" فلم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام"(2) حتى انه كان يتفاخر بأعدادها الكبيرة فقال مرة لأصحابه : "أصبحت اليوم في ثلاث نعم ... وأما الثالثة فانا أريكموهن وقام فأمر برفع ستر فإذا فيه جوار مختلفات كأنهم البدور الطوالع من بنات ملوك الروم والبربر عليهن الحلي والحلل فهنئ أيضا بذلك"(3).

وكان موسى قد بدأ في تكوين هذه المملكة من السبايا منذ بداية ولايته بلاد المغرب " فأول فتوحه قلعة زغوان ونواحيها ... وبنواحي زغوان قبائل بربر بعث إليهم موسى خمسمائة فارس ... فبلغ سبيهم عشرة آلاف وهو أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى"(4)، " ثم فتح هوارة وزناتة وكتامة، فأغار عليهم وقتلهم وسباهم، فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس "(5). " وذكر ابن أبي حسان أن موسى لما فتح سقيوما، كتب إلى الوليد بن

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 69.

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 43.

(3) - نفسه، ص 44.

(4) - نفسه، ص 40.

(5) - نفسه، ص 41.

عبد الملك أنه سار لك من سبي سقيوما مائة ألف رأس، فكتب إليه الوليد: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمة"(1). كما كتب موسى إلى عبد العزيز يعلمه بالفتح ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفا، وكان ذلك وهما من الكاتب: كتب ثلاثين ألفا بدل من ستين ألفا، فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب، وأن الخمس من السبي ثلاثون ألفا، استكثر ذلك، ورأى أنه وهم من الكاتب لكثرته فكتب إلى موسى يقول له: " إنه قد بلغني كتابك تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس، فاستكثرت ذلك وظننته وهما من الكاتب فاكتب بالحقيقة " فكتب إليه موسى: " قد كان ذلك وهما من الكاتب على ما ظنه الأمير، والخمس أيها الأمير، ستون ألف رأس ثابتا بلا وهم، فلما بلغه الكتاب، عجب كل العجب وامتلأ سرورا"(2).

هذه الأرقام، تبين إلى أي حد اهتم موسى بن نصير أثناء ولايته على المغرب بالجري وراء جمع الجواري المسبيات، ومن شدة سعيه لجمع السبي أنه ما أن وصلته وهو في القيروان أنباء ذلك النجاح الباهر الذي حققه طارق في الأندلس، بعد أن كان وصله نصيبه في الخمس من الأموال والسبايا من الإسبانيات الجميلات حتى "هرع في السنة التالية 93 هـ بمن كان معه من القوات العربية "(3) فجمع موسى أعدادا هائلة من السبايا، فقد سهر معه ليلة يزيد بن المهلب، " فقال له: يا أبا عبد الرحمان في كم

(1) - الرقيق القرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 45.

(2) - ابن عذاري، م. س، ص 40.

(3) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 250.

كنت تعتد، أنت وأهل بيتك من الموالي والخدم: أتكونون في ألف ؟ فقال: نعم وألف ألف إلى منقطع النفس "(1).

وهذه ميزة تميز بها موسى بن نصير كثيرا، في أوساط قادة الفتح ومجالس الخلفاء.

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 46.

على المستوى الاقتصادي :

"عدد من المستشرقين والكتاب العرب المعاصرين، يرون بأن العامل الاقتصادي كان المحرك الأقوى لإستراتيجية الفتح عند العرب، ولقد بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار حركة الفتوح إحدى الهجرات السامية المتأخرة التي اعتادت على قذفها شبه الجزيرة الجدباء"(1) ومن ابرز الذين قالوا بهذا، المستشرق " كيتاني Coetani " و" روم لاندوRom Lando "، هؤلاء يجردون " الفتوحات تقريبا من كل مضامينها باستثناء الحاجة إلى تطوير النظم الاجتماعية، وتحسين الأوضاع المعيشية لعرب شبه الجزيرة، الذين اندفعوا في موجات، تشبه حسب زعمهم الموجات السامية القديمة، أوفي غزوات كالتي ألفتها القبائل في مشاحناتها الضارية قبل الإسلام"(2).

ويبدو هذا الموقف متطرف جدا، لأنه يغفل الظروف الجديدة التي أصبحت تعيشها شبه الجزيرة العربية بعد احتضانها للدعوة الإسلامية وضرورة تصديرها للخارج، في إطار حركة الفتح الإسلامي.

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 36.

(2) - نفسه، ص 38.

لكــن هذا لا ينفـي بتاتا وقوع هــذه التجاوزات الاقتصادية من طرف قادة الفتح وجيوشهم وقبل هؤلاء، من طرف خلفاء الدولة الأمويــة، ولا أدل علــى ذلك من وقــوع صدامات ونزاعــات كثيرة وخطيــرة بين قــادة الفتح، وبينهــم وبين الخلفاء بســبب العامل الاقتصادي.

" فالاندراج تحت لواء العقيدة وفق مخطط تبشـيري للدعوة إلى الإسـلام ليس كافيا لتعبئة جماعــات كان الإيمان الصحيح يعوز بعضها"(1). " كمــا أن مفهوم الجهاد لديها، لم يكن يعني فقــط، التضحيــة والتمــاس الحياة المثلــى في الآخــرة، فهو في مضمونــه يعني مباشــرة الجانب الدنيوي في شــخصية المقاتل العربي المســلم ... أي أن للجهاد محتواه المثالي هو التضحية في الوقت الذي اتخذ فيه بعده الدنيوي متمثلا في الغنائم وعائدات الحرب الأخرى"(2).

" وإذا كانــت الأعمــال التي قــام بها الفاتحــون الأوائل، تؤكد إخلاصهم لقضية مشــتركة تفوقت على أي اهتمام آخر ... فإن الأنانية وكذلك الجشع سرعان ما استأثر بالقلوب بعد وقت قريب وغمــر رجال الصحراء ترف غير عادي انصب عليهم من كل ناحية مما كان له أثره في إفساد النفوس أكثر من تهذيبها، ولقد أصابت الأســر المرموقــة في الكوفة ثراء فاحشــا كان مصــدره الغنائم والأعطيات السنوية، فكان الكوفي إذا ذهب إلى الحرب يصطحب

(1) - ابراهيــم بيضــون، ملامح التيارات السياســية في القــرن الأول الهجري، ص 39.

(2) - نفسـه، ص 41.

معــه أكثر من ألف من الجمال عليها متاعه وخدمه "(1). " فكان الدافع الرئيســي لاندفاع جموع الأعــراب، البدو المولعين بالنهب والمغامرات نحــو الأراضي الخصبة المحيطة هو وفــرة الغنيمة في الحرب والرواتب المضمونة من بيت المال"(2). " بعد أن كان المسلمون منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وحتى عهد الخليفة عمر بــن الخطاب يقاتلون بدون عطاء أو رزق ثابت"(3) أي بدافع جهادي صرف وعند مطالعتنا لكتب الفتح العربي الإســلامي للمغرب، تبــدو لنــا العمليات العســكرية وكأنها موجهة فقط للســبي والغنم والحصــول على الأموال وتبدو للدولة الأموية مســؤولية كبيــرة في ذلك، ويرجع ذلك " إلى أطماعها في خيرات بلاد المغرب منذ الســنوات الأولى للفتح، حيث بلغ جشع بعض قوادها مداه، فكانوا يســترقون أبناء البربر حين يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال، وتطالعنــا المراجع عن وفرة الغنائم والفيء الذي كان يوزع على الفاتحين بعد المعارك العسكرية"(4).

فعبــد الله ابن ســعد، بث الســرايا وفرقهــا " فأصابوا غنائم كثيرة، فلما رأى ذلك رؤســاء أهل إفريقيــا طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر، ولم يول عليهم أحدا ... فبلغ سهم الفارس

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 66.

(2) - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 82.

(3) - خالــد جاســم الجنابــي، تنظيمات الجيــش العربي الإســلامي في العصر الأموي، ص 79.

(4) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي منهج وتطبيق، ط 1974، دار العودة، بيروت، ص 136.

ثلاثة آلاف دينار، للفرس ألفا دينار، ولفارسه ألف دينار"(1).

" فكانت غنائم المعارك التي وقعت بأيدي العرب في افريقية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح كبيرة جدا "(2). " فقد أصبحت ولاية افريقية كلها تحت رحمة العرب. ... فأخذوا ينهبون ما يجدونه حتى جمعوا غنيمة طائلة، ويظهر أنهم لم يغادروا ناحية إلا وصلوها وبلغوا سفوح الجبال حيث ترعى قطعان البربر، فاستاقوا كثيرا من الماشية، واجتمع للعرب من ذلك كله ثروة طائلة"(3).

حتى أن عبد الله بن سعد كان " يدهش لأكوام المال التي كانت توضع بين يديه، فسأل الأفارقة "(4) : "من أين لكم هذا ؟ فجعل إنسان منهم يدور كالذي يتلمس الشيء حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه، فقال: من هذا الورق. قال وكيف ؟ قال: إن الروم ليس عندهم زيتون فكانوا يأتون، فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم"(5). ويعبر " كودل Coudel " عن عظم وكثرة الغنائم بقوله: " ويدهش الإنسان من كثرة ما أصاب الجندي الواحد من الغنيمة ولكن ينبغي أن نذكر جيدا أن هؤلاء الرجال، ضلوا طوال بضعة أشهر ينتقلون من قرية لقرية، ومن مدينة لمدينة، يجمعون، بما عرف عنهم من العناية الفارغة بهذا العمل،

(1) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 36.

(2) - خالد جاسم الجنابي، م. س، ص 107.

(3) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 98-97.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 161.

(5) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 39.

كل ما استطاعوا حمله، ولابد أن المحصول كان كبيرا، بحيث فكر عبد الله في التراجع مباشرة حين لاحت له مخايل المقاومة التي أبداها أهل الساحل"(1).

كما تظهر كثرة الغنائم، من خلال رواية يوردها المالكي تقول: "أن ابن سعد كتب إلى نائبه في مصر وهو عقبة بن عامر الجهني ليرسل إليه المراكب في طرابلس، وبعد أن حملت هذه المراكب أثقال الجيش في البحر، سار ابن سعد وأصحابه إلى مصر"(2) "فحسب الناس أن افريقية قد تم فتحها وتناقلوا هذا الخبر ودونه الرواة ... وهذا خلاف الواقع كما سبق بيانه، إذ لم تكن حملة عبد الله الإغارة طويلة، كثيرة الأحداث، وافرة الغنيمة، عاد العرب منها فعادت البلاد إلى ما كانت عليه"(3).

ويبدو أن هذه المغانم الكبيرة كان لها تأثير سلبي على علاقات أفراد الجيش بحيث تذكر بعض الروايات " أن مسألة المغانم والخمس سببت سخطا في جيش سبيطلة العربي على عبد الله بن سعد، فطلب الناس بعزله عن قيادتهم، واستجاب لهم عثمان بن عفان "(4). " فالود لم يكن معقودا بين ابن الزبير وابن أبي سرح في افريقية، ورأينا الأول يقبل على معسكر المسلمين فلا يسلم على القائد، ثم يخاطبه في لهجة لا تخلو من شدة، ورأينا ابن أبي سرح لا تكاد تسنح له الفرصة للخلاص من ابن

(1) - حسين مؤنس، م. س، ص 99.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 161.

(3) - حسين مؤنس، م. س، ص 107-106.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 162.

الزبير، حتى يسارع فيرسله إلى المدينة، ولاحظنا كذلك أن ابن الزبير لم ينس في آخر خطبته أن يقول إن مروان بن الحكم طفق على غنائم الحملة كلها"(1). "فعبد الله بن الزبير وعبد الله بن سعد كلاهما كان يحاول السيطرة على الآخر وقيادة الجند"(2). "كما أن بعض الروايات الخاصة بحملة ابن سعد على سبيطلة تعبر عن عدم رضا أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار عن قيادة ابن سعد لهم"(3). أما بين مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير، فقد أثرت المغانم على علاقتهما في دمشق. " فقال مروان بن الحكم يوما، في مجلس معاوية: " ثلاث لم أدخل فيهن حراما قط: داري بالمدينة ومالي بذي خشب وصدقات نسائي، فنظر معاوية إلى عبد الله بن الزبير وكان حاضرا فقال له: ما تقول؟ فإنك طعان" فقال: فمهلا أبا عبد الملك، خرجنا مع ابن أبى سرح إلى غزو إفريقية فولله ما كان مروان أحسننا وجها، ولا أكثرنا نفقة ولا أعظمنا في العدو نكاية، فطفق على خمس إفريقية بما تعلم، وتحابى له من تعلم فبنى منه الدار واتخذ منه المال، وتزوج منه النساء"(4).

أما معاوية بن حديج فقد " وجه عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عددا كثيرا حتى فتحها عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية وأخذ جميع ما

(1) - حسين مؤنس، م. س، ص 103.

(2) - نفسه، ص 100.

(3) - سعد زغلول، م. س، ص 164.

(4) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 13.

كان في المدينة وحمل ذلك كله إلى معاوية بن حديج ... كما أغزى جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة"(1) " فأسفرت حملته عن غنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر"(2). "وكانت غنائم حملة جلولاء _ مثلها مثل مغانم سبيطلة _ سببا في منازعات بين العسكر إذ أراد أفراد السرية التي فتحها أن تكون غنيمتها وسبيها لهم وحدهم دون بقية المعسكر"(3) ويورد ابن عبد الحكم رواية في هذا الشأن تقول: " إذا مدينة جولاء قد وقع حائطها فدخلها المسلمون، وغنموا ما فيها ... فاختلف الناس في الغنيمة، فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، فكتب أن العسكر رديء للسرية، فقسم ذلك بينهم فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضرب للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم قال عبد الملك : فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية"(4) وكان النزاع اخطر على مستوى قيادة الجيش فلما دخلت مدينة جلولاء " واحتوى المسلمون على جميع ما فيها، كان بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان تنازع في ذلك، لأن عبد الملك أراد محاباة إخوانه وأصحابه"(5).

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 17-16.

(2) - محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، منهج وتطبيق، ص 136.

(3) - سعد زغلول، م. س، ص 173.

(4) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 48.

(5) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 18.

أما أثناء حملة عقبة بن نافع " فقد بلغت المغانم التي أحرزها، من الكثرة درجة جعلته يوجهها إلى المشرق"(1)، ولابد هنا من الإشارة إلى تصرفه الغريب مع " يليان " حاكم طنجة وخصوصا مع ما عورف عن عقبة من صرامة عسكرية جارفة فلما قاربه،" وجه إليه يليان رسالة، مستعطفا ومستلطفا وبعث له هدية عظيمة"(2) فانصرف عنه عقبة " لا إسلام ولا جزية ولا حرب"(3).

وهكذا فإن ولاية إفريقية " أصبحت بالنسبة للعرب أرض المغانم والأسلاب والسبي، أرض أكوام الورق وقناطير الذهب والسبايا الجميلات "(4).

وهذا ما يظهر بجلاء أثناء ولاية حسان بن النعمان " الذي عاد إلى المشرق محملا بالأموال والجواهر والذهب المخبأة في قرب الماء، وكذلك الوصائف والوصفان والجواري من بنات عظماء الروم والبربر "(5) وما جعل حسان يخبئ هذه الأموال في قرب الماء هو مخافته من عبد العزيز بن مروان والي مصر، الذي كان يقوم بدور الجمركي بين غنائم المغرب ونقلها إلى دمشق، بحيث كان يسيطر على النصيب الأوفر مما يعود به قادة الفتح من المغرب في طريقهم إلى الخليفة، " بحيث أن حسان لما قدم على

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 137.

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 26.

(3) - حسين مؤنس، م. س، ص 193.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 174.

(5) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 39-38.

أمير مصر عبد العزيز بن مروان، أهدي مائتي جارية ... فسلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان، ورحل حسان بالأثقال التي بقيت له، حتى قدم على الوليد، فشكى لها ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد على عمه"(1) وهناك رواية للرقيق ينقلها ابن عذارى تقول أن الخليفة الوليد بن عبد الملك استعظم ما قدمه له حسان من الأموال والذخائر، ولكن الرواية تحمل في ثناياها ما يشتم منها رائحة الخلاف على تقدير المغانم والأموال. فحسان يقول للوليد: إنما خرجت مجاهدا في سبيل الله، وليس مثلي يخون الله والخليفة، ورغم أن الخليفة عرض على حسان أن يرده إلى عمله بالمغرب وأن يحسن إليه فإن الوالي المعتز بكرامته حلف: لا أولي لبني أمية أبدا"(2).

بهذه الطريقة إذن انتهت ولاية حسان بن النعمان، لتبدأ ولاية موسى بن نصير " الذي حرص على جمع اكبر قدر من المال حتى أنه حرم رجاله في بعض الأحيان من حقهم"(3) فدخل المغرب " وقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم منها أموالا كثيرة ... فأصاب عددا من ولائد ووصفاء وذهبا وفضة"(4). " ولما وصلت موسى بن نصير وهو في القيروان أنباء، ذلك النجاح _ الباهر الذي حققه طارق _، بعد أن كان وصله نصيبه في الخمس من

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 39-38.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 235.

(3) - محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 137.

(4) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 40.

الأموال والسبايا من الإسبانيات الجميلات هرع في السنة التالية 93هـ بمن كان معه من القوات العربية"(1) " ففتح أسبانيا جذب اهتمام العرب وأنظارهم فانصرف الكثيرون منهم عن أتمام فتح افريقية وإسلام أهلها"(2) كما فعل موسى بن نصير الذي ما أن بلغه ما تيسر لطارق " حتى حسده على ذلك وقدم في حشد كبير"(3). " وأسرع طارق لملاقاته وتقابل القائدان في "طلبيرة ". ويقال إن موسى أنب طارقا وبالغ في إهانته ... وعزله من قيادة جيشه وحبسه وعهد بالقيادة إلى مغيث الرومي"(4).

"أما نهاية طارق فمثلها مثل نهاية " الكونت يوليان ". يمر عليهم المؤرخون بالسكون والصمت ولا يذكرون ما حدث له بدمشق"(5).

وبعد وصول موسى إلى الأندلس جمع من الأموال ما لا يقدر على صفته، ودفع طارق كل ما كان غنم إليه"(6) فكتب موسى إلى عبد الملك إنها ليست بالفتوح ولكنه الحشر"(7) " وخرج بغنائمه وبالجوهر والمائدة، فلما قدم افريقية كتب إليه الوليد

(1) - سعد زغلول، م. س. ص 250.

(2) - حسين مؤنس، م. س. ص 269.

(3) - ابن القوطية، تاريخ إفتتاح الأندلس، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتب الإسلامية، ط 1، 1982، ص 35.

(4) - حسن خلية وآخرون، تاريخ العرب في إفريقية والأندلس، ط 1، 1938، ص21.

(5) - نفسه، ص 78.

(6) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 77.

(7) - نفسه، ص 78.

بن عبد الملك بالخروج إليه فخرج "(1). " ثم إنه ركب يريد الشام فلما كان بـ"العريش" جاءه كتاب الوليد يستعجله، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص، وكان سليمان ولي عهده وكان الوليد مريضا ... فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ودفع الأموال إلى الوليد وأهدى إليه المائدة والدر والياقوت ... ولم يلبث الوليد إلا ثلاثة أيام حتى مات "(2) " وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة، حين توفي الوليد، فسخط على موسى، وقال له: يا يهودي، كتبت إليك فلم تنظر في كتابي"(3).

" فحبسه واغرمه وعهد إلى خمسة نفر من وجوه العرب بالأندلس بقتل ابنه عبد العزيز منهم حبيب بن أبي عبيدة الفهري ... فقصدوا إليه ... فلما أصبح خرج إلى مسجد وصار في المحراب، وقرا بفاتحة الكتاب وسورة الواقعة، فرفع القوم سيوفهم عليه بمرة وأخذوا رأسه وبعثوا به إلى سليمان "(4). " وبعث سليمان في موسى بن نصير لما ورد عليه الرأس وأراه إياه في طست فقال له موسى: والله لقد قتلته صواما قواما "(5) "ولم يزل موسى يعذب حتى مات "(6). " في واد القرى سنة 97 هـ وهو في حالة عوز وبأس شديدين "(7).

(1) - نفسه، ص 82-81.

(2) - الرقيق القيرواني، م. س. ص 56.

(3) - نفسه، ص 57.

(4) - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 36.

(5) - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 37.

(6) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 60.

((7) - حسن خليفة، م. س. ص 24.

"والروايات تختلف في سبب نكبة موس بن نصير، وتقدم لذلك أسبابا شخصية منها سوء معاملة موسى لطارق بن زياد بسبب تنافسهما على فتح الأندلس، والإستلاء على كنوزه وذخائره، ومنها أن موسى فوت على سليمان تلك الكنوز فقدمها إلى الوليد وهو يحتضر"(1). " والحقيقة أنه رغم أن موسى وقع في قبضة الخلافة وأصبح تحت رحمة خصومه، إلا أنه كان يمثل خطرا شديدا على سليمان. فلقد حضر موسى إلى الشام تاركا بلاد المغرب والأندلس جميعا تحت سلطان أبنائه، فلقد كان عبد الله بن موسى في القيروان وعبد الملك بن موسى في طنجة وعبد العزيز بن موسى في اشبيلية "(2). " واتسعت أملاك موسى في الغرب حتى أصبحت تضارع في اتساعها أملاك الحجاج في الشرق "(3). " وكان المال يتدفق بين يديه بعد أن تم له فتح أسبانيا، وبلغ ذروة المجد والقوة إلا أنه دأب على التطاول على نصيب الخلافة بنفس الجرأة التي اصطنعها من قبل ... وكان الوليد قد دأب على مراقبة خطاه منذ زمن بعيد، ومن ثم أمره بالشخوص إلى الشام ليناقشه الحساب فأخذ موسى يسوف في تنفيذ هذا الأمر ردحا طويلا بقدر المستطاع، لكنه اضطر في النهاية للرضوخ وغادر أسبانيا، وبلغ البلاط وحاول عبثا أن يتقي غضب الخليفة بما قدمه إليه من الهدايا العظيمة ... وهكذا طرد ذلك الوالي الخائن شر طردة من الحلقة ... وكان الخليفة لا يرى عقابا له غير الموت غير أن بعض الرجال البارزين الذين أكتسبهم

(1) - سعد زغلول، م. س، ص 253.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 256.

(3) - حسن خليفة، م. س، ص 10.

موسى إلى جانبه بالمال سألوا الخلافة الإبقاء عليه، فأجابهم إلى طلبه بعد أن فرض عليه غرامة فادحة جدا"(1).

هذا هو الوجه الآخر، من شخصية موسى بن نصير، الذي استغل ولايته بالمغرب وقيادته لجيوش الفتح، ليكون مملكة حقيقية، ونحن هنا لا نبرئ ولا ندين لا الخلفاء ولا قادة الفتح وإنما نسوق الأحداث التاريخية كما هي، ونرى من الأمانة إيراد هذه القولة للرجل في آخر أيامه الصعبة بالشام، " عندما سئل، لماذا لم يمكث في عزه وجاهه بعيدا عن منال الخلافة، بقوله: والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئا ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة"(2).

هكذا تواصلت هذه السياسة الاقتصادية الاستغلالية من طرف الدولة الأموية وولاتها بالمغرب، حتى عهد الخليفة التقي عمر بن عبد العزيز، " الذي كان حاكما محترما دينا، تفزعه صيحات الاضطراب والكراهية"(3). " فقد حاول وضع حد لتلك المظالم فعاود تطبيق سياسة عمر بن الخطاب تمشيا مع الشريعة الإسلامية، ففي المغرب أسند الإمارة إلى وال تقي هو إسماعيل بن عبيد الله، وأمره بإسقاط الجزية عن البربر المسلمين وتحرير من استرق من نسائهم، كما أمره بإعادة الأرض إلى أصحابها يجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم، وأشار عليه بأن يجمع بين أعباء الحكم من إدارة وحرب إلى جانب جمع

(1) - رمون دوزي، تاريخ إسبانيا، ج 1، ص 132.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 255.

(3) - رمون دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ج 1، ص 134.

الخراج والصدقات، ليحول دون جورهم واستبدادهم ويستعيد ثقة البربر في الحكومة الإسلامية"(1).

" فكانت فكرة عمر بن عبد العزيز عن الإسلام أوسع أفقا من أفكار سابقيه فجعل همه نشر الإسلام أولا وقبل كل شيء وفي ذلك ينسب إليه الكتاب أنه قال: إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا "(2).

ويعتقد الكثير من الكتاب المعاصرين أن الفتح الحقيقي للمغرب، ثم في عيد الخليفة عمر بن عبد العزيز، " على يد البعثة التي أرسلها برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر الذي كان عهد ولايته خيرا وبركة بكل ما تحمل الكلمة من معان "(3)، " بحيث اهتم بدعاء البربر إلى الإسلام واستجاب البربر جميعا لدعوته فلم يبق يومئذ في ولايته من البربر أحدا إلا أسلم "(4)، " ويرجع الفضل فيما تحقق في هذا الميدان إلى الخليفة نفسه إذ ينسب إليه الكتاب أنه بعث إلى المغرب عشرة من فقهاء التابعين من أهل العلم والفضل ... وبفضل جهود هؤلاء التابعين، تعلم المغاربة أصول الإسلام فقرءوا القرآن وعرفوا اللغة العربية"(5) وقبل خلافة عمر بن عبد العزيز، "لم يكن أهل إفريقية يعرفون

(1) - محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 139-138.

(2) - سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص 262.

(3) - صابر محمد دياب حسن، بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، ص 120.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 265.

(5) - نفسه، ص 266.

الحلال والحرام وكانت الخمر بإفريقية حلالا"(1)، حتى وصل التابعون فبينوا تحريمها.

إلا أن هذه السياسة الرشيدة التي استحدثها عمر بن عبد العزيز في المغرب لن تعرف الاستمرارية". بحيث ضرب بها عرض الحائط بعد موت عمر، وعادت الخلافة الأموية إلى سيرتها الأولى"(2) وهذا ما سنراه أثناء دراستنا لفترة الولاة.

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 48.

(2) -محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 139.

المبحث الرابع:
ثورات المغاربة ردا على تجاوزات الفاتحين:

"بعدما يكون المرء، قد اطلع على ردود الفعل التي كانت تصدر، قبل الإسلام عن البربر، كلما هُجموا في عقر دارهم، يكون قد أدرك الأسباب التي من اجلها لم تفتح إفريقيا الشمالية كاملة للدين المحمدي إلا بعد لأي وعناء. كان من الطبيعي أن ينظر الأمازيغيون إلى الفاتحين، نظرة المغزو للغازي، لاسيما أن العرب كانوا يطرقون الأبواب، مصحوبين بقضهم وقضيضهم على حد تعبير ابن عبد الحكم، مسلحين مستعدين للقتال، ظاهري الرغبة في السبي والغنم، _ كما رأينا سابقا _ فلا غرابة والحالة تلك أن ينهض الأهالي لرد ما يرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد ... ومن هذا المنظور ينبغي أن يفهم دور كل من " كسيلة " في مقاومته عقبة بن نافع، و " داهيا " (التي لقبها العرب بالكاهنة) في تصديها لجيوش حسان بن النعمان، و" ميسرة "، ثم " عبد الحميد الزناتي " في مواجهتما للجيش الأموي العرمرم "(4). " ومن هنا كذلك نفهم رواية ابن خلدون عن أبي زيد القيرواني قوله: ارتدت البربر

(1) - محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين، ص 43.

اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، وأجاز معه (أي طارق) كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هناك فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه"(1) فالمغاربة شنوا مجموعة من الثورات، سواء على عهد الفاتحين، أو عهد الولاة، لم تنتهي إلا بثورة المغاربة الكبرى التي أعلنوا من خلالها الاستقلال النهائي والتام عن المشرق ، وعن السلطة المركزية هناك ليؤسسوا دولا مغربية ستتحول إلى إمبراطوريات كبرى تزعمت الغرب الإسلامي لفترة طويلة.

ثورة المغاربة بزعامة كسيلة:

تميزت فترة ولاية عقبة الثانية في بلاد المغرب، بتدشينه لحملة عسكرية قوية بحيث " شن على المغرب غارة من الطراز العالي، قد يكون من المجازفة الاطمئنان إلى وقائعها "(2).

وحفلت هذه الحملة بالعمليات العسكرية على امتداد أرض المغرب، من برقة شرقا حتى بحر الظلمات غربا وصولا إلى السوس الأقصى جنوبا.

وبعد عودة عقبة بن نافع من حملته المظفرة، كانت مفاجأة بانتظاره دمرت كل إنجازاته العسكرية الأخيرة وأعادت النفوذ العربي في افريقية إلى حجمه القديم، فما كاد يصل إلى "طبنة" في إقليم الزاب، حتى أدرك أن تحركا مريبا يقوم به البربر من

(1) - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص113.

(2) - شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، تعريب محمد مزالي، 1983.

جماعة كسيلة"(1). في وقت لم يبق معه من جيشه سوى خمسة آلاف"(2) ولا نعلم السبب الحقيقي الذي جعل عقبة يسرح الجزء الأكبر من جيشه وهو في طريق عودته إلى القيروان، " فهل كان ذلك نتيجة لشعوره بضخامة المؤامرة المبيتة، فأراد النجاة بجيشه الرئيسي والقيام بعملية انتحارية لاختراق الكمين؟ أم أن الإسراع بإيفاد القسم الرئيسي من الجيش قد تم بأمر الخلافة، تمهيدا لإلحاقه بالجيش المركزي في دمشق، حيث كانت تعصف بها أزمات سياسية خطيرة في الوقت نفسه، خاصة في العراق والحجاز "(3)، أم أن إرسال هذا العسكر إلى القيروان جاء نتيجة لرغبتهم في " الإياب إلى أحيائهم، والبدار إلى عيالهم"(4) على حد تعليل ابن عذارى، أم أن عقبة " لم يكن عند ذلك مسيطرا على جيوشه المحملة بالغنائم"(5) ففقد السيطرة عليها، وتفرقت رغما عنه.

مهما يكن من أمر جيش عقبة، فإن كسيلة بالمقابل " كان قد جمع أكثر من خمسين ألف مقاتل"(6)، واخذ يعد العدة للرد

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 180.

(2) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، ص 227.

(3) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 181.

(4) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 28.

(5) - شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، تعريب محمد مزالي، 1983، ص 22.

(6) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص 228.

على عقبة والانتقام منه ... "(1)، " فركبه البربر في الجيوش العظيمة، وغشيه بهم كسيلة بقرب تهودا "(2)، " حيث يوجد معقل بيزنطي قديم اعترض كسيلة مع حلفائه سير القائد الأموي فيما يشبه الكمين، وكانت عملية متقنة نجح خلالها المتحالفون في تحطيم الفرقة المتبقية من جيش عقبة وذلك بعد معركة قتل فيها هذا الأخير وبقية القواد ومنهم أبو المهاجر، بينما غرق الآخرون في بحر من الدماء"(3) " ومعلوم أن جثمان عقبة مدفون في مسجد الواحة التي تحمل اسمه (سيدي عقبة) على بعد خمسة كيلومترات جنوب "تهودة "، تحت قبة متواضعة البناء يحج إليها أحفاد الذين ساهموا في مقتله"(4)، " ولم يفلت من الموت إلا من وقع أسيرا في أيدي البربر أمثال محمد بن أوس الأنصاري، ويزيد بن خلف العبسي"(5).

وبعد هزيمة عقبة في معركة تهودة انتشر الرعب بين صفوف الجيش الأموي المتبقي في القيروان بقيادة زهير بن قيس البلوي " فالمعروف أنهم كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى حشود البربر الكثيفة التي كان يقودها كسيلة، وواضح أن معظم الجنود العرب قد سئموا القتال في غزوة عقبة، فمالوا للعودة للمشرق، ... وتقدم كسيلة بعسكره بعد انتصاره في تهودة

(1) - محمد المختار العرباوي، البربر عرب قدامى، ص 43.

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 29.

(3) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 181.

(4) - شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، تعريب محمد مزالي، 1983، ص 22.

(5) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص 228.

نحو القيروان"(1) وبسط نفوذه عليها وأسس بها مملكة بربرية حقيقة لمدة خمس سنوات، " بقي فيها البربر مستقلين حول كسيلة، الذي استمر حاكما بالقيروان ناصبا ميزان العدل"(2).

" ولم يعد هناك إذن بعد هذه العزيمة العاتية مكان للجيوش الإسلامية في افريقية وعاد الأمر كما بدأ أيام عمرو... والموفق الحربي انقلبت رأسا على عقب، والنصر الذي حققه المسلمون في خلال هذه السنوات منذ كانت جرائد الخيل التي كان يبعثها عمرو، حتى أوطأ عقبة فرسه من شاطئ المحيط، آل إلى الهزيمة الأليمة ... و كانت مأساة تهودة هي أقسى ما لق المسلمون في فتوح المغرب، وقد تكون أقسى ما لقوا في الفتوح الأخرى، لم نشهد إلا مرة واحدة أن الجيش قد فني كله، ولم نشهد مرة أن حركة ارتداد شملت الأقطار المفتوحة بمثل هذه السعة الواسعة من طنجة إلى القيروان أو برقة"(3).

" وهكذا انتهت حملة عقبة الكبرى بكارثة إذ فقد العرب كل فتوحاتهم في افريقية والمغرب "(4).

وثورة بهذا الحجم، وبهذه النتائج الخطيرة وبهذه الطريقة التي تمت بها أيضا، لا يمكن بتاتا أن تربط بشخص واحد، كما يفعل الكثير من الباحثين الذين يعمدون إلى التقليل من حجم هذه الثورة وتقزيمها واختزالها بتفسيرها انطلاقا من عامل شخصي

(1) - نفسه، ص 231.

(2) - أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربعة عصور، ص 154.

(3) - شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ص 170.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 29.

يتمثل في علاقة كسيلة بعقبة بن نافع وما تخل هذه العلاقة من استبداد و استفزاز من طرف هذا الأخير بحيث يذكر المالكي وابن عذارى " أن عقبة أتى يوما بذود غنم فأمر بذبحها للعسكر، وأمر كسيلة أن يسلخ منها مع السالخين. فقال كسيلة : أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وعبيدي يكفوني المونة، فقال عقبة: لا، فقام كسيلة مغضبا، فكان كلما لحس، مسح بلحيته، فجعل العرب يمرون به فيقولون: يا بربري ما تصنع؟ فيقول: هذا جيد للشعر، حتى مر به شيخ من العرب فقال لهم: كلا إن البربري يتوعدكم"(1).

" فعقبة أساء إلى كسيلة وأهانه بسلخ جلود الغنم ففر كسيلة من معسكر عقبة ومعه جموع بربر " اوربة "، وتمكن من تكوين جيش ضخم من البربر ... وفر إلى جبل " أوراس "، وعزم على الترصد لعقبة وهو في طريق عودته من غزوة السوس "(2).

ويذهب بعض الباحثين إلى القول بان كسيلة، حاول من خلال تمرده وثورته تخليص صديقه أبا المهاجر دينار الذي كان أسيرا في معسكر المسلمين وفي هذا يقول المالكي: " وقيل إن كسيلة إنما أتى ناصرا لأبي المهاجر لأنه كان صديقه، فقتل أبو المهاجر في التحام القتال و لم يعلم به "(3). فعقبة لما قدم القيروان في ولايته الثانية، بدأ عمله بالاقتصاص من أبي المهاجر " فبادر بالقبض عليه وتقييده، وصادر ما معه من الأموال وجملتها مائة

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 29 .

(2) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2 ، ص 221.

(3) - محمد المختار الغرباوي، البربر عرب قدامى، ص 45.

ألف دينار ... ثم أشفى غليله بتخريب مدينته التي بناها"(1)، "وغزا به السوس وهو في حديد "(2)، " و أخذ معه كسيلة أيضا في حديد"(3)، " وتعمد إذلاله وإهانته بالرغم من أن أبا المهاجر عرفه بمكانته"(4)، " و أنه من ملوك البربر و لم يستحكم الإسلام من قلبه"(5)، و" يبدو أن عقبة كان يسعى لنقض سياسة أبي المهاجر من أساسها وهي سياسة اثبت نجاحا عظيما إذ انتهت بضم بربر أوربة إلى جانب المسلمين وبدخول عدد كبير منهم في الإسلام، ولو أن عقبة تابع سياسة أبي المهاجر، لقدر له أن يستكمل فتح المغرب كله دون أن يريق كثيرا من دماء المسلمين، ولكن اصطناعه سياسة متناقضة، مدفوعا في ذلك بعامل السخط على أبي المهاجر، كان السبب في حدوث الكارثة التي أسفرت عنها غزوته الكبرى إلى السوس الأقصى"(6)، فقد نشأت بين كسيلة وأبي المهاجر صداقة متينة، كان أساسها السياسة الودية التي انتهجها البربر" حيث ابتنى ونزل بالقرب من قرية بربرية تعرف " بدكرور" وهذا يعبر عن تفكير أبي المهاجر في المزج والتقريب بين العرب والبربر وهو الأساس الذي أنبنت عليه سياسته، ويذكر الكتاب لأبي المهاجر أنه أول من طبق سياسة الاستقرار الدائم للعرب في افريقية وسار أبو المهاجر

(1) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2 ، ص 221.

(2) - ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص 85.

(3) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 181.

(4) - العرباوي، م. س، ص 43.

(5) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 29.

(6) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص220.

على سياسته المخالفة لسياسة عقبة العسكرية الصارمة فعمل على اكتساب البربر باللين والمداراة"(1).

" وأبو المهاجر لم يسع إلى الغنيمة ولم يهتم بالمال، بل كان يرمي إلى إتمام فتح البلاد فقط. وكان يستطيع أن يأخذ من أهل قرطاجنة، مبلغا طائلا من المال حين فاوضوه ليرجع عنهم ولكنه أبى ذلك وعادهم على أن ينزلوا له عن شيء من أرضهم"(2) وقد كان غيره من قادة الفتح " لا يكادون يجرون على خطة مرسومة أو حتى على علم بحالة البلاد، وكان همهم منصرفا دائما إلى محاصرة بعض المدن والغنم منها"(3).

" ولا شك أن سياسة أبي المهاجر هذه عملت على ازدياد نطاق الإسلام في المغرب فدخول زعماء البربر في الإسلام يعني دخول قبائلهم هي الأخرى... وهكذا أقام أبو المهاجر في القيروان يوطد أركان الإسلام في المغرب، إلى وفاة معاوية، وخلافة ابنه يزيد الذي أعاد عقبة من جديد إلى ولاية المغرب"(4).

ولقد أصاب " كودل " كل الصواب حين دافع عن دينار وأكد أن كونه مولى ليس عربيا قد قلل من قدره في حساب المؤرخين، وجعله عند المقارنة أقل من عقبة مع أنه ليس أقل منه كفاءة ولا مهارة ... فلقد كان قائدا من الدرجة الأولى يفوق مجده مجد عقبة نفسه وكل الآخرين، كان دينار في الواقع رجلا ماهرا "(5).

(1) - سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص 190.

(2) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 175.

(3) - نفسه، ص 182.

(4) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 113.

(5) - عبد العزيز سالم، م. س، ص 224.

"وأعماله كانت على جانب كبير من الأهمية لأنه أول من جعل غايته الأخيرة فتح البلاد وتثبيت قدم العرب و الإسلام فيها"(1) وكل هذه، الميزات التي تميز بها دينار جعلت البربر و زعيمهم كسيلة يقدرونه ويقبلون على دعوته إلى الإسلام، بل إن الكتاب يقولون إن كسيلة والبربر ثاروا لتخليص أبي المهاجر من أسره.

لكن حقيقة الثورة أنها كانت ثورة لكل المغاربة ردا على تجاوزات كل قادة الفتح ولم تكن ثورة رجل واحد (كسيلة) ردا على رجل آخر (عقبة) كما يزعم الكثير من الباحثين.

وكانت بوادر هذه الثورة قد بدأت منذ الغارات الأولى وبالتالي التجاوزات الأولى في حق البربر، " فمن الثابت أن أمور إفريقية كانت على حال من الاضطراب تؤيد قول ابن الأثير أن معاوية بن حديج وصل إلى إفريقية و هي نار تضطرم"(2) وتكاثف الضغط وتجمعت عوامل الثورة التي تفجرت في ولاية عقبة بن نافع، بعد أن توفرت الظروف المناسبة، إن على المستوى العسكري أو التنظيمي، وأهم من كل هذا بعد أن استطاع البربر التمييز بين نوعين من أوجه التعامل معهم من قبل قادة الفتح، ومثل هذان الوجهان بوضوح أبو المهاجر دينار ونقيضه عقبة بن نافع، الذي غزا قبيلة أوربة البرانسية التي كانت " قد أسلمت بإسلام كسيلة و ليس هناك ما يدعو إلى غزوها"(3). " فأوغل في الغرب

---

(1) - نفسه، ص157.

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 26.

(3) - حسين مؤنس، م. س، ص 176.

يقتل ويأسر أمة بعد أمة وطائفة بعد طائفة"(1)، " ولا نزاع في أن إسلام كسيلة، كان حدثا عظيما له معناه وأثره البعيدان، فأما معناه فنجاح الفاتح الإسلامي (دينار) في تأدية الغرض الأسمى من هذا الفتح نشر الإسلام و أما تأثيره فلا نزاع في أن كسيلة لم يسلم بمفرده، وإنما تبعه نفر كبير من قومه"(5)، " والذي يفهم من النصوص أن كسيلة لم يرتد عن الإسلام، وقرينة ذلك انه عامل المسلمين في القيروان معاملة طيبة، والحقيقة أن كسيلة ما كان ليرتد بعد أن حسن إسلامه"(3) ويظهر ذلك من خلال سلوكه وتصرفه مع المسلمين والذي ينم عن مبادئ إسلامية وقيم أخلاقية عالية، " فبعد عملية " تهودة " تحول بجيشه الكثيف إلى القيروان...

ولم يقم بأي أعمل انتقامية بل أمن من فيها وظل بها مدة خمس سنوات لم يمس خلالها بسوء من بقي من المسلمين عربا وبربرا، الذين عاشوا طيلة هذه الفترة أحرارا في ممارسة شؤونهم ومعتقداتهم، والجدير بالذكر أن كسيلة لم يقم بأي عمل حربي ولم يلاحق الفارين إلى برقة مع أنه كان قادرا على ذلك وفي وسعه الانتقام من العرب الباقين ومن كل الذين دخلوا في دينهم وآزروهم"(4)، " وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم فدعا أشرافهم وأكابرهم فشاورهم وقال لهم: إني أردت

---

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 26.

(2) - حسين مؤنس، م. س، ص 176.

(3) - سعد زغلول، م. س، ص 207.

(4) - محمد مختار العرباوي، م. س، ص 44.

أن أرحل إلى ممس فأنزلها فإن هذه المدينة (أي القيروان) فيها خلق من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم "(1). " فآمن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين "(2).

يضاف إلى هذا أن كسيلة عندما أسر في " تهودة " بعض الوجوه مثل محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي لم يصبهم بأي أذى بل قبل تدخل ابن معاذ صاحب قفصة الذي أفتدى هؤلاء الأسرى وبعث بهم إلى زهير في برقة"(3).

هكذا إذن كانت ثورة كسيلة ثورة كل المغاربة، ردا على أخطاء وتجاوزات قادة الفتح ثورة جاءت مباشرة بعد وقوف البربر على التناقض الصارخ بين نبالة النص الإسلامي ودناءة ممارسة الفاتحين من خلال تعاملهم مع سياسة نبيلة دشنها أبو مهاجر دينار وأخرى دنيئة وقع فيها القادة الآخرين وشهدت أوجها وتوهجها أثناء ولاية عقبة، فنهض المغاربة للثورة، وعبروا عن سخطهم بوجه حضاري مستمد من أخلاق وقيم الإسلام، وتجلى في ذلك في تعاملهم مع الأسرى المسلمين، وهذا يدل على أن الثورة لم تكن ثورة ضد الإسلام وإنما كانت ثورة على تجاوزات تصرفات بعيدة كل البعد عن الإسلام، وحتى عندما كان المغاربة يقبلون على الردة بأعداد كبيرة، فإنما كان ذلك من أجل الاحتجاج وإسماع صوتهم لأن ذلك ما استطاعوا التعبير به عن رفضهم وعدم تقبلهم هذه الصور المشوهة عن الإسلام.

(1) - الرقيق القيرواني، م. س. ص 19-18.
(2) - ابن عذاري، م. س. ص 31.
(3) - العرباوي، م. س. ص 44.

ثورة المغاربة بزعامة داهيا (الكاهنة):

" بعد مقتل كسيلة بن لمزم، زعيم قبيلة أوربة البرانسية، لم يتوقف تيار التمرد البربري على الوجود العربي الإسلامي في بلاد المغرب، إذ اندلعت ثورة بربر الأوراس البترية الملامح"(1). وعلى هذا فثورة الكاهنة امتداد طبيعي ومنطقي لثورة كسيلة انطلاقا من نفس الأسباب ونفس العوامل فإذا كان البربر بزعامة كسيلة ثاروا على عقبة لأنهم رأوا أن " عقبة أراد بحبس كسيلة وإهانته أن يؤكد لأهل البلاد استخفافه بهم وتحقيره لشأنهم فغضبت أوربة ومن والاها من القبائل"(2) بعد أن اشتد الضغط على البربر فتولد الانفجار.

فإن ثورة الكاهنة انطلقت هي الأخرى من نفس الضغط الذي مارسه الفاتحون، لكن في شقه الاقتصادي، "حيث لاحظت الكاهنة أن العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همتهم إلى المدائن والنواحي العامرة، يبذلون وسعهم في الاستيلاء عليها، فإذا تم لم ذلك انقضوا على الخيرات والنفائس والأموال فانتهبوها ولم يخلفوا وراءهم منها شيئا ... فوقع في ظنها أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد إلا أمرا واحدا الأموال والغنائم والأسلاب والسبي فأحبت أن تقطع رجاء العرب في البلاد بأن تقضي على كل معالم العمران فيها"(3) " فقالت

(1) - صابر محمد، م. س. ص 100.
(2) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 181.
(3) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 252.

للبربر: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ... فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر"(1) والحقيقة أن العرب الفاتحين هم الذين أعطوا لنفسهم هذه الصورة السيئة التي ترسخت لدى البربر فكان عملهم هذا على حد تعبير "وليم مرسييه" : "تضحية وطنية، وقد أقدم عليها الوطنيون أكثر من مرة إذ يفضلون خراب بلادهم على الاستعباد"(2). "ولقد كانت سياسة التخريب التي اتبعتها الكاهنة موضع جدا بين الكتاب الأوربيين " فبروفنسال " يؤيد مقالة " جاتو " (Gateau) ويقول أنه من الواضح أن نسبة هذا العمل، الذي يخالف طباع البربر إلى الكاهنة لابد أن تكون محل شك، ولا ريب أن العرب وهم المسئولون الحقيقيون عما أصاب إفريقية من خراب البلاد: الاقتصادي الزراعي، بعد ذلك بسنوات هم الذين نسبوا إلى بطلة الأوراس هذه الجريمة التي لابد أن نضيفها إلى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد "(3).

فيما يخص الجانب العسكري في ثورة الكاهنة، فقد تمثل في مواجهتها لجيوش حسان بن النعمان، " إذ يذكر ابن دينار أن الكاهنة لما علمت بأمر حسان بن النعمان الغساني قدمت إليه في عسكر عظيم ... والتقت به على واد مسكيانة بشرق القطر الجزائري"(4) " ولم يستطع حسان الذي سارع إلى اعتراضها

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 36.

(2) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 246.

(3) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج 1، ص 221.

(4) - محمد المختار الغرباوي، مرجع سابق، ص 48.

الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها"(1). " فتراجعت فلول جيشه في منطقة الجريد"(2) "وتبع رجال الكاهنة حسان حتى خرج حدود قابس منسحبا إلى ما وراء مدينة طرابلس، حيث أقام في موضع مازال إلى الآن يحتفظ باسم قصور حسان ... وهكذا اضطر العرب إلى التخلي عن فتوحهم في إفريقية والمغرب للمرة الثالثة خلال عشر سنوات (من 65هـ إلى 74هـ). وتطلب الأمر خمس سنوات طوال لكي تسترجع البلاد التي سادتها الكاهنة كخليفة لكسيلة، ورغم ما يصف به الكتاب تلك المرأة من الشعوذة واعتناق اليهودية أو الوثنية وسوء السيرة"(3) " فإن الكاهنة لم تتعرض للقيروان بسوء ولم تدخلها وإنما عادت إلى جبل أوراس"(4).

"وكانت قد أسرت بعد انتصارها على المسلمين في وادي مسكيانة نحو ثمانين رجلا من أشراف العرب أفرجت عنهم بعد انسحاب حسان من إفريقية وفي هذا يقول ابن عذارى: "وكانت الكاهنة لما أسرت ثمانين رجلا من أصحاب حسان، أحسنت إليهم وأرسلت بهم إلى حسان وحبست عندها خالد ابن يزيد فقالت له يوما: ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد آن أرضعك فتكون أخا لولدي"(5). "فكما فعل كسيلة عقب

(1) - سعد زغلول، م. س. ص 220-219.

(2) - عبد العزيز سالم، م. س. ص 245.

(3) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص37 .

(4) - سعد زغلول، م. س. ص 220.

(5) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 286.

وفاة عقبة، أطلقت الكاهنة سـراح الأسرى العرب وأعادتهم إلى حسان"(1).

وفـي هذا يقول مرسـييه يعلق علـى انتصـار الكاهنة على حسـان و معاملتهـا لأسـرى المسـلمين: " وهكذا ضـرب البربر _ للمـرة الثانية _ مثلاً في الإنسـانية لهـؤلاء الذين لم يكونوا يتخذون أسـاليب أخرى غير العنف والقتل"(2) واسـتمر انتصار الكاهنة لمدة خس سـنوات فرضت فيها على حسان بن النعمان إقامـة جبرية فـي برقة، ليتلقى بعـد ذلك الدعـم والإمداد من دمشـق ولا نشك أدنى شـك في أن حسـان بن النعمان استفاد كثيـرا من الأخبار التـي كان يزوده بها خالد ابـن يزيد في معرفة أحوال الكاهنة وجيوشـها وتنظيماتها وخططهـا الحربية، على اعتبار إن خالد ابن يزيد كان يقوم بشـبه جوسسة عند الكاهنة. " وأمرت الكاهنة قبل المعركة الحاسمة بيوم أولادها بأن يسلموا أنفسـهم إلـى العدو، ولقد بـين " كوتييه " فـي مقارنة موحية كيـف آن هـذا الصنيـع طبيعـي بالنسـبة لقائد بربـري يضع سلطان عائلته على القبيلة فوق كل اعتبار، وخاضت الملكة وقد تقدمت بها السن معركة ميؤوسا منها في مكان ربما يكون قرب " طبرقـة " ثم طوردت وخلصاؤها حتـى الأوراس، وقتلت قرب بئر تسـمى من ذلك الوقت بئر الكاهنة. وحمل رأسـها مشهرا إلى الخليفة، وبموتها انتهت فترة الدفاع البطولي"(3) إلى حين.

(1) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، ص 245.

(2) - حسين مؤنس، م، س، ص 246.

(3) - شارل أدري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، ص 26.

تجاوزات الولاة في بلاد المغرب

المبحث الأول:

مفهوم عصر الولاة:

" يطلــق مصطلح عصــر الولاة في بلاد المغــرب والأندلس أو الغرب الإســلامي كما يســمى أيضا على الفتــرة الزمنية التي أعقبت اســتدعاء الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك لموسى بن نصير (96-86 هـ / 715-705م) من بلاد المغرب والأندلس سنة 96 هــ / 715 م، حتى قيام الدولة المســتقلة عن الســلطة المركزية (دار الخلافــة) في هــذه المنطقة"(1) بعد ثــورات المغاربة كدولة المدراريين بسجلماســة سنة 140هـ والرســتميين بتيهرت سنة 161 هـ وإمارة نكورة في نهاية القرن الأول الهجري، والبوغواطيين بتامســنا في العقــد الثاني من القرن الثانــي الهجري ... " ويدل هــذا الاســم _ أي عصــر الــولاة _ علــى وضــع سياســي معين شهدته البلاد الإسلامية في الجناح الغربي من الخلافة، منذ أن تم للمسلمين فتحها في نهاية القرن الأول الهجري الموافق للسابع الميلادي"(2)، " فمنذ ولاية موســى بن نصيــر أصبح حاكم البلاد أميرا يقيم بالقيــروان"(3)، وكانت الأندلس تابعة لولاية المغرب،

(1) - عبد العزيز فيلالي، المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس، ص 21.

(2) - نفسه.

(3) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 124.

" فوالي افريقية يولي على الأندلس من أحب"(1). " فكانت بلاد المغرب والأندلس تتبع السلطة المركزية مباشرة في دمشق، في عهد الدولة الأموية، ثم بغداد في عهد الدولة العباسية على اعتبار أنهما _ أي المغرب والأندلس _ كانا " يخضعان أنداك إلى الولاة المقيمين في القيروان"(2). " الذين تولوا شؤونهما باسم السلطة المركزية، وقاموا بتنفيذ السياسة التي رسمها الخليفة وأعوانه في عاصمته في بلاد المشرق"(3) هذه السياسة التي سقطت في الكثير من السلبيات والأخطاء والتجاوزات، إن على المستوى الأخلاقي أو العنصري أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو العسكري. فما كان على المغاربة إلا أن يردوا بطريقتهم الخاصة والمعتادة على امتداد تاريخهم الطويل، أي بالثورة.

"واتسم عصر الولاة في بلاد المغرب، بأربعة مظاهر كبرى هي: 1 - تفشي الروح العصبية والعنصرية القبلية بين القبائل العربية. 2 - ظهور الممارسات السلبية للسياسة الأموية وإدارتها في بلاد المغرب. 3 - انتشار المذهب الخارجي (الصفري والإباضي) بين القبائل المغربية. 4 - اندلاع الثورات والانتفاضات الشعبية المغربية المسلحة العديدة في بلاد المغرب، ضد ولاة السلطة المركزية والتي انتهت بطبيعة الحال إلى قطيعة بين أهل المغرب، والخلافة الأموية، وخروج معظم مناطق المغربين الأوسط

(1) - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 37.

(2) - شرل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، ص36.

(3) - عبد العزيز فلالي، م. س، ص 121.

والأقصى عن إدارة الخلفاء وولاتهم في افريقية" .

وكان هذا الخروج التدريجي للمغرب عن السلطة المركزية الأموية في المشرق والذي برز من خلال مجموعة من الدويلات المستقلة في جميع أنحائه، هو المؤدي إلى الانفصال التام والاستقلال النهائي في نهاية المطاف، بعد الثورات التي اندلعت كذلك أثناء الحكم العباسي.

(1) - عبد العزيز فلالي، المظاهر الكبرى لعصر الولاة لبلاد المغرب والأندلس، ص 23.

المبحث الثاني:

كرونولوجيا حكم الولاة في بلاد المغرب:

الوالي	فترة ولايته	عهد الخليفة
عبد الرحمان بن حبيب	(137-127هـ/ 745-755م)	مروان بن محمد – أبو العباس السفاح – أبو جعفر المنصور.
إلياس أبن حبيب	(139-137هـ/ 755-756م)	أبو جعفر المنصور
استيلاء الخوارج بقيادة عاصم بن جميل زعيم قبيلة ورفجومة على القيروان عاصمة الولاية.	(141-139هـ/ 756-759م)	أبو جعفر المنصور
استيلاء الخوارج بقيادة أبي الخطاب المعافري على القيروان	(144-141هـ/ 759-761م)	أبو جعفر المنصور
محمد بن الأشعث الخزاعي	(148-144هـ/ 761-765م)	أبو جعفر المنصور
الأغلب بن سالم الخزاعي	(150-148هـ/ 765-767م)	أبو جعفر المنصور
عمر بن حفص بن عثمان الأزدي	(154-150هـ/ 767-771م)	أبو جعفر المنصور
استيلاء الخوارج بزعامة أبي حاتم الملزوزي المغيلي على القيروان	(155-154هـ/ 771-772م)	أبو جعفر المنصور
يزيد بن حاتم الأزدي	(171-155هـ/ 772-788م)	أبو جعفر المنصور – محمد المهدي – الهادي – هارون الرشيد
روح بن حاتم	(174-172هـ/ 790-792م)	هارون الرشيد
حبيب بن نصر المهلبي	(177-174هـ/ 792-795م)	هارون الرشيد
الفضل بن روح بن حاتم	(178-177هـ/ 795-796م)	هارون الرشيد
هرثمة بن اعين	(181-178هـ/ 796-799م)	هارون الرشيد
محمد بن مقاتل المكي	(184-181هـ/ 799-801م)	هارون الرشيد

المبحث الثالث:

الممارسات السلبية للولاة ببلاد المغرب:

تفشي الروح العصبية والنزاعات السياسية بين الولاة:

من الأكيد أن العرب انتقلوا إلى بلاد المغرب، ونقلوا معهم أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم، وثقافتهم، كما نقلوا أيضا نزاعاتهم المذهبية والقبلية وصراعاتهم العصبية والسياسية التي طغت على مجريات أحداث بلاد المغرب في هذه الفترة بحيث عانت من النزاعات السياسية وفتنها ومواجهاتها نتيجة للخصومات القبلية بين الولاة من القيسية واليمنية، حتى آن الكثير من الدارسين يعتبرون هذه الخصومات القبلية ونتائجها احد أهم وأبرز أسباب ثورات البربر على الحكم الأموي بل إنها " كانت من أسباب هزيمة الجيوش العربية أمام الثوار "(1) المغاربة.

و يعود السبب الرئيسي في انتشار هذا المظهر و تفاقم أحداثه ... إلى السياسة التي اتبعها خلفاء بني أمية"(2). "فالخلافة الأموية مسئولة عن ذلك إلى ابعد الحدود إذ شجعت على إذكاء الضغائن بين القبائل بقصد احداث نوع من التوازن

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص115-114.

(2) - عبد العزيز فلالي، م. س. ص 24.

يكفل لها البقاء والاستمرار، فكانت تارة تتعصب للقيسية، وأخرى تشايع اليمنية، وكان ولاتها في المغرب يتعصبون بالتالي لبني جلدتهم ويؤثرونهم بالحظوة ويبطشون بالفرع الآخر"(1). فقد كان العرب الذين استقروا في المغرب أيام موسى بن نصير من اليمنية وهم غالبية عرب الفتح فآزروا موسى خلال ولايته ولما عزل، " واستقر يزيد في المغرب سنة 102 هـ طبق سياسة الحجاج العنيفة"(2) وخرج وهو يقول: مالي عذر إن لم أعدل(3) "ان قيسيا متعصبا لقيسيته فكان هدفه الرئيسي وشغله الشاغل القضاء على نفوذ أل موسى لذلك فمجرد وصوله إلى المغرب، اخذ يتتبعهم ويلاحقهم ويبطش بهم وينزع منهم أموالهم وممتلكاتهم ويضيفها إلى خزائنه وخزائن قومه وخزائن الخلفاء. " ثم وصله الأمر بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير، وتعذيبه واستنصال أموال بني موسى نسجنه محمد وعذبه، ثم قتله بعد ذلك ... أما عبد العزيز بن موسى ... فجاءت الكتب إلى حبيب بن أبي عبدة ووجوه العرب من سليمان بن عبد الملك يأمرهم بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعا بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه "(4).

وفي ولاية يزيد بن أبى مسلم عاد نفوذ اليمنية من جديد فانتقم من سلفه " فأخذ محمد ابن يزيد القرشي فعذبه

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص115.

(2) - سعد زغلول، م. س. ص 28.

(3) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 58.

(4) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 47.

وجلده جلدا وجيعا فاستقاه فسقاه رمادا، وكان محمد بن يزيد قد ولى عذاب يزيد بن أبي مسلم في المشرق في زمان الحجاج، فقال له يزيد: إذا أصبحت عذبتك حتى تموت أو أموت قبلك"(1). " فرمى به في السجن وأشبعه جلدا وتعذيبا"(2) ولاحق عماله وأتباعه فكان مصيرهم نسخة طبق الأصل لمصير واليهم محمد بن يزيد واستمر اليمنيون في تنكيلهم بالقيسيين على امتداد فترة ولايتهم بالمغرب بقيادة بشر بن صفوان، والذي كان من غلاة اليمنية. " فمال إلى القسوة والعنف فقام بقتل عبد الله بن موسى لاتهامه بالتحريض على مقتل يزيد بن أبي مسلم وتتبع أمواله بالمصادرة وعذب مواليه بالرغم من كونه يمنيا ولعل عذره في ذلك هو تنفيذ أوامر الخليفة وسياسته ضد أل موسى وأتباعه"(3) بحيث يذكر ابن عبد الحكم أن " يزيد كتب إلى بشر بن صفوان يأمره بقتل عبد الله بن موسى بن نصير"(4) و يبدو أنه كان قاسيا في تعامله مع الرعية والقيسية على وجه الخصوص وهذا ما جعلهم يترقبون موته بفارغ الصبر وكان بشر يعلم بذلك.

إذ يذكر ابن عذارى أنه " لما حظرته الوفاة، قالت جاريته: واشماتة الأعداء!، فقال لها: قولي للأعداء لا يموت"(5). " وبلغ به

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 88.

(2) - محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 28.

(3) - عبد العزيز فيلالي، م، س، ص 35.

(4) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 90.

(5) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 49.

التعصب لعشيرته انه استخلف على البلاد قبل موته نفاش بن قرط الكلبي فعاث فيها وأسرف في إذلال القيسية"(1). " وعاود القيسية الظهور حين ولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمان القيسي"(2) " فدخل القيروان فجأة وذلك يوم الجمعة، فألقى خليفة بشر بن صفوان قد تهيأ لشهود الجمعة، ولبس ثيابه، فقيل له: هذا عبيدة قد قدم أميرا. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، هكذا تقوم الساعة بغتة، وألقى بنفسه فما حملته رجلاه"(3) وهذه الرواية تبين التخوف الكبير والرعب الواضح الذي كان ينتاب عمال وأتباع الولاة السابقين، كلما سمعوا بقدوم الوالي الجديد. " وكان عبيدة هذا قيسيا متعصبا"(4) "وكما جرت العادة بدأ يتتبع عمال الوالي القديم ومعاونيه في سبيل البحث عما اكتنزوه غدرا من الأموال"(5) " فأخذ عمال بشر وأصحابه، فحسبهم وأغرمهم وعذبهم". " وزج بهم في السجون، وصب عليهم سوط العذاب ثم اغتصب منهم مبالغ ضخمة، إرضاء لطمع مولاه"(6) " وكان شديد الوطأة على كل من ينتمي إلى اليمنية على حد تعبير حسين مؤنس"(7) " وكان من ضحايا سياسته التعصبية عامل من عمال بشر بن صفوان

(1) - محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب، ص 29.

(2) - نفسه.

(3) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 50.

(4) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، ص 296.

(5) - سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج 1، ص 274.

(6) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 50.

(7) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ج 1، ص 135.

هو أبو الخطاب الحسام بن ضرار الكلبي، عزله عبيدة ونكل به"(1) "فتولد في نفسه وهو في السجن حقد دفين ضد هذا الطاغية وضد القيسيين بصفة عامة"(2) فنضم قصيدة يشكو فيها حاله وحال كل اليمنيين إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنشد يقول :

أفأتم بني مروان قيسا دماءنا *** وفي الله إن لم تعدلوا حكم عدل
وقيناكم حر القنا بصدورنا *** وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغت نيل ما قد أردتم *** وطابت لكم فيها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأنا لم نكن لكم *** صديقا وأنتم ما علمتم لنا وصل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة *** وزلت عن المرقاة بالقدم النعل(3)

وبعث بهذه الأبيات إلى الخليفة الذي أمر بعزل عبيدة عن إفريقية والمغرب وكان للخوف من الحرب الأهلية وقع شديد في نفس الخليفة الذي صاح قائلا: " قبح الله ابن النصرانية، هذا الذي لم يطع أوامري"(4).

" واستمرت محنة اليمنية في المغرب في عهد عبيد الله بن الحبحاب الذي تقلد الولاية سنة 116هـ ولاقى أشياعهم على يديه عنتا شديدا"(5).

" فقد كان هو الأخر قيسيا متعصبا لقيسيته "(6)، فسار

(1) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، ص 297.
(2) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ج 1، ص 137.
(3) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 70-69.
(4) - دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا، ج 1، ص 137
(5) - محمود اسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 29.
(6) - عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص 298.

على نهج أسلافه القيسيين في التنكيل باليمنيين والإستجابة لمطالب الخلافة، المستفيدة من هذه، المواجهات القيسية، اليمنية ولو إلى حين، كما استمر الولاة بعد عبيد الله بن الحبحاب، في نهج نفس السياسة القبلية إلى حدود سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ وقامت الدولة العباسية، في نفس العام فتحول الصراع تدريجيا، من صراع عربي ـ عربي، إلى صراع فارسي خراساني ـ عربي " فقد عول بنو العباس على إرسال جيوش متوالية من الفرس والخراسانيين لدعم نفوذهم في المغرب في الوقت الذي اختاروا فيه ولاة من العرب، ومنذ ذلك الحين ازدادت الأحوال السياسية في بلاد المغرب اضطرابا، شجع عليه اتجاه الخلافة اتجاها شرقيا محابيا للعناصر الشرقية صاحبة الفضل في قيامها، فالعنصر العربي، قيسية ويمنية لم يجد سندا من الدولة فقام الصراع بين العرب من ناحية والفرس والخراسانيين من ناحية أخرى ... وأسفر عن أحداث خطيرة ... لعل من أهمها تمرد الجند على الوالي محمد بن الأشعث وطرده من المغرب سنة 148 هـ وتعيين وال آخر محله دون إذن الخليفة، كذا تمردهم على الوالي الأغلب بن سالم وقتله سنة 150هـ وأخيرا اغتصاب أحد زعماء الجند ويدعى ابن الجارود السلطة في القيروان قسرا وبطشه بأشياع الخلافة" .

هذه لمحات فقط عن ذلك التدني والدناءة، الذي سقط فيه الولاة سواء في العصر الأموي أو العباسي، " والحديث عن هذا الموضوع سيطول بنا لو استطردنا فيه فالمصادر التاريخية

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص128.

والمدونات والكتب الأدبية والدواوين الشعرية، أسهبت في الحديث عنه ". وإذا ما جارينا نحن أيضا هذه المصادر والمدونات وأسهبنا في الحديث أكثر عن هذا الموضوع فسيطول بنا الحديث بشكل لا يتصور.

سياسة الاستبداد مع البربر على المستوى العنصري والاقتصادي والأخلاقي:

تميز حكم الولاة في بلاد المغرب، _ سواء في العصر الأموي أو العباسي _ برسم صور سوداء حالكة، تجعلنا لا نميز ولا نفرق كثيرا بين ما اقترفه الرومان والوندال والبيزنطيون مثلا، وما عمل الولاة المسلمون، الممثلون للخلافة الإسلامية المركزية بالمشرق.

"ذلك أن الولاة المسلمين في المغرب لم تكن لهم سياسة محكمة ولم يحفلوا كثيرا بحسن معاملة السكان وسلوك سبيل العدل معهم ... فعاملوا رعاياهم بقسوة وطمع غير متورعين عن خرق حدود الشريعة الإسلامية مع أنهم كانوا القيمين عليها"(1) وثبت خرقهم للشريعة الإسلامية، على الكثير من المستويات، سنتطرق لصور ونماذج منها فقط، لأن الإحاطة بكل جوانب ودقائق هذا الموضوع أمر صعب للغاية، فالمصادر العربية الإسلامية، ومؤلفات الباحثين المعاصرين، تحفل بأخبار وإشارات وتحليلات وتفسيرات كثيرة ومختلفة، تحاول فهم واستيعاب هذا الموضوع القديم _ الجديد، الذي يثير في كل

(1) - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 105.

مرة الكثير من النقاش والجدل والمواجهة، ويثير أيضا الكثير من التجدد في جوهره وعمقه وتفاصيله، لذلك فنحن لن نباشر هذا الموضوع بالتحليل والتفسير وبالتالي إصدار الأحكام المطلقة، وإنما سنعتمد فقط على استقراء تاريخي للأحداث من خلال المصادر والمراجع المتاحة لنا حاليا.

فالواقع والمنطق التاريخي يثبت إثباتا لا يقبل الاعتراض، أن الخلافة المركزية من خلال ولاتها في بلاد المغرب، سقطت في ممارسات سلبية بل ودنيئة تجاه المغاربة أدت بهم في النهاية إلى إعلان الثورة، التي ستؤدي إلى الانفصال عن هذه الخلافة التي لم تعد في نظرهم مؤهلة لأن تحكمهم باسم الإسلام، ليدخل الغرب الإسلامي مرحلة جديدة وهي بداية تكوين دول بل وإمبراطوريات مغربية ستعرف مجدا كبيرا، وستطبق نظرياتها في الحكم والعدل والمساواة، والإحسان .... بعد أن غابت هذه المبادئ أو بالأحرى تم تغييبها زمن حكم الولاة. " الذين لم يكتفوا باضطهاد خصومهم من الحي العربي، فحسب، بل لم يتورعوا عن الإساءة إلى أهل المغرب وخصوصا بعد انتهاء عهد الخليفة الأموي الورع، عمر بن عبد العزيز، الذي سلك سياسة إصلاحية في كافة المجالات مست أرجاء الخلافة، وهي إعادة الدين الإسلامي إلى أصوله الأولى، وتطبيق أحكام الشريعة على جميع المسلمين في مختلف أقاليم الدولة دونما تمييز. فقد أعاد الهدوء والطمأنينة إلى قلوب المسلمين بهذه السياسة الحكيمة، وبعدم انتمائه إلى أي جماعة من الجماعتين المتنازعتين"(1)، وتميز عهد

(1) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ص 174.

عمر بن عبد العزيز بهذه النزعة الإصلاحية عن باقي فترات الحكم الأموي، يبين أن " ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون سياستها وأن الخلفاء درجوا على اختيار ولاة على شاكلتهم، وإلا فما تفسير سني الإصلاح التي شهدتها بلاد المغرب إبان ولاية إسماعيل بن عبيد الله الذي كان معينا من قبل الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز"(1).

وهكذا فقد تراوحت السياسة التي اتبعها الولاة في بلاد المغرب بين النزعة العنصرية الجامحة، والشطط الاقتصادي الواضح، والجرائم الأخلاقية والإنسانية في حق المغاربة.

فالنزعة العنصرية " تتجسد بشكل سافر في وجود سياسة أموية عامة قائمة على التفاضل بين العرب وبين غيرهم من الشعوب الأخرى كالفرس والروم والقبط والبربر والقوط ممن دخلوا الإسلام وأصبحوا موالي"(2). فهذا معاوية، كتب مرة إلى وردان (مصر): أن زد على كل امرئ من القبط قيراطا. فرد عليه بقوله: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألا يزاد عليهم"(3). وهذا يبين أن هذه العنصرية امتدت إلى جميع الأقطار المفتوحة، وفي هذا الأمر يشير أحد الباحثين المعاصرين بقوله: " إن علاقة العرب... بالشعوب التي خضعت لهم كانت منذ بدايتها ثمرات نظام الفتوح الذي جعل منهم طبقة عسكرية متفرغة وأدى إلى تسييس الجيش منذ الثورة ضد عثمان بن عفان ... ومن خلال

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 131.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 130.

(3) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 72.

هذه المعادلة كان دخول المولى في الإسلام دخول التابع وليس الشريك"(1).

" ومن مظاهر التمايز العنصري، تجنيد البربر كمشاة في الحملات والجيوش التي كان الولاة يبعثونها لغزو الجزر البحرية في البحر المتوسط أوفي المغرب الأقصى وبلاد السودان، وحرم عليهم العمل كفرسان، إذ حظي العرب وحدهم بتلك الميزة، أكثر من ذلك كان البربر يتقدمون الصفوف، فيفنى منهم من يفنى لتلقيهم الضربات الأولى وبعد المعارك كان العرب وحدهم يستأثرون بالمغانم والفيء من دون البربر " فقد استعملهم العرب كوسيلة لتحقيق أغراضهم الاقتصادية وإشباع نهمهم من الأموال، في غزواتهم في صقلية وسردينية وبلاد السوس "والتي لم يكن لها من هدف سوى السلب و النهب"(2).

وكل هذه العوامل والمظاهر العنصرية أحدثت تمايزا بين العرب والبربر، تمايز عنصري كان أحد السمات البارزة للدولة الأموية التي أنبتت هياكلها الاقتصادية على نظام الفتوح وما يوفره من مداخيل مالية ناجمة عن ضرائب الجزية والخراج والغنائم والأسلاب والسبي... حتى ارتبط لدى هذه الدولة وخلفائها وولاتها، ما هو عنصري بما هو اقتصادي، فكان ضروريا عليها أن تكون دولة عنصرية لتضمن تدفق مصادر اقتصادها، الذي قد يتعطل بتعطل مداخيل البلاد المفتوحة، " فقد كان المعروف أن أوامر الدين تسقط الجزية في الحال عمن يسلم من الذميين في

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 17-16.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 132.

دار الإسلام ولا تجبر هذه الجزية إلا ممن بقي على دين أسلافه، فكان أن أخذت الملة الإسلامية تتلقى كل يوم في أحضانها جماعات من المسلمين ... فقل دخل الخزينة قلة عظمى من ذلك مثلا خراج مصر بلغ في خلافة عثمان 12 مليون قطعة، ثم ما لبث أن تدهور في خلافة معاوية حتى بلغ 5 ملايين قطعة وذلك من جراء إسلام معظم الأقباط، ثم تدهور إلى أكثر من هذا زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذي لم يبال بالأمر حتى لقد بعث إليه أحد جباته رسالة يقول له فيها : لو استمر الأمر على هذا المنوال طويلا في مصر لجب الذميون ديانتهم ولأسلموا وقل الخراج في بيت المال، فأجابه: وددت لو أسلموا فما بعث الله نبيه جابيا ولكن هاديا"(1)، لكن سياسة عمر هذه لم تستمر، فبوفاته، عاد الخلفاء بعده إلى سيرتهم الأولى المبنية على العنصرية الاقتصادية إن صح التعبير، فازدادت الفوارق بين العرب وغيرهم من الشعوب، فأصبحت البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامي تتشكل في العصر الأموي من طبقتين أساسيتين:

الطبقة الأولى: وهي الطبقة الأرستقراطية العربية الحاكمة التي تتربع على قمة هرم المجتمع الإسلامي وتتصدره.

الطبقة الثانية: وهي الشريحة المستضعفة من المجتمع، التي تتشكل من الموالي وهم أهل الأمصار المفتوحة وعلى الرغم من إسلامهم إلا أنهم ظلوا مندرجين في الطبقة المحرومة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا"(2).

(1) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ص 138.

(2) - عبد العزيز فلالي، المظاهر الكبرى لعصر الولاة، ص 25.

"وفي أوائل العصر العباسي، حل الفرس محل العرب فتصدروا الهرم الطبقي ... وظل البربر في العصرين الأموي والعباسي بمعزل عن السياسة العامة للخلافتين معا"(1) فلم يشركوا قط في مناصب قيادية سواء سياسية أو عسكرية وإنما استعملوا كأداة لتحقيق أطماع الولاة والخلفاء.

أما الشطط الاقتصادي للولاة فيمكن رصده من خلال أربعة مظاهر:

" **الغنائم والهدايا:** التي كان الولاة يبعثون بها إلى الخلفاء.

السبي: وقد نشط خاصة أيام الفتح، وبعد إسلام البربر لجأ الولاة إلى تسيير حملات عسكرية إلى الأطراف النائية كمنطقة سوس الأقصى.

التخميس: ويمثل ذروة تعسف الإدارة الأموية في المغرب في الميدان المالي بحيث تم اعتبار البربر أنفسا وأموالا خمس الغنائم يحق للولاة حق التصرف فيه.

الضرائب: وكانت نتيجة لتوقف الفتوحات وبالتالي توقف تدفق الغنائم فتم سن نظام جبائي يعتمد أساسا على الخراج والجزية"(2).

وهذا التعسف الاقتصادي أمر مفهوم ومعروف، "فمسؤولية الخلافة الأموية ترجع إلى أطماعها في خيرات بلاد المغرب منذ

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 130.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 138-136.

السنوات الأولى للفتح، حيث بلغ جشع بعض قوادها مداه، فكانوا يسترقون أبناء البربر حين يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال... وبعد إتمام الفتح عول الولاة في القيروان على إتباع سياسة مالية جائرة فأرهقوا البربر بالمغارم والجبايات واعتبروا بلادهم دار حرب حتى بعد اعتناقهم الإسلام، فقد طبقت السياسة التي استنها الحجاج في كافة الولايات الإسلامية لأنها ضمنت للخلافة مزيدا من الأموال، وتقضي هذه السياسة بعدم إسقاط الجزية عن الموالي أسلموا أم لم يسلموا، فضلا عن إرهاق الفلاحين بمزيد من الضرائب غير ضريبة الخراج" . "فكان الولاة يتنافسون في جمع الأموال إرضاء للخلافة من ناحية، وكسبا للأنصار وإشباعا لنهمهم من ناحية أخرى، فعكفوا على إرسال الحملات والجيوش تضرب في أطراف المغرب أو تهاجم الجزر البحرية في البحر المتوسط بغية السلب والنهب"(1). "يدل على ذلك ما شاع على الألسن في ذلك العصر من إطلاق تعبير: أكل الولاية وحلبها كما تحلب الناقة"(2).

"وكانت طريقة الجباية التي فرضها المنتصرون مكروهة حسب رأي الفقهاء، ففي الموعد أو الموسم المحدد لها يتوجه المكلفون الذين تقع عليهم الضريبة إلى ديوان الخراج حيث يتخذ صاحبه العربي أريكة عالية، فكان الرجل يتقدم بخضوع باسطا يده اليمنى و فيها قيمة الضريبة فإذا امتدت إليها يد صاحب الخراج يتلقى حاملها صفعة على رقبته من أحد مساعدي هذا

(1) - محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 29.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 138.

الأخير تدفع به حتى الباب وكان مسموحا للجمهور حضور هذا المشهد ... أما الذين يعجزون عن دفع الجزية المفروضة عليهم فكانوا يخضعون للتعذيب بحرارة الشمس الحارقة أو بصب الزيت على الضحايا ... وفوق ذلك كانوا يجبرون على تعليق حجارة أو جرار ممتلئة بالماء في أعناقهم ويكرهون على الوقوف موثقين لساعات طويلة على قدم واحدة مما يحول دون استطاعتهم بعد ذلك السجود للصلاة"(1) "فكان العرب يعاملون بدون شفقة ولا رحمة المسلمين الذين لم يمض وقت طويل على إسلامهم وخاصة منهم البربر"(2).

"ونتيجة حتمية لهذه التجاوزات فقد فشل خلفاء بني أمية في تحقيق الحد الأدنى من الهدوء والطمأنينة في نفوس الرعية التي تشبعت بروح الإسلام وعرفت تعاليمه ومبادئه ورأت بأن الأمويين لم يتمكنوا من وضع أساس لاستقرار العلاقة المتكافئة مع سكان بلاد المغرب"(3). فلم يكن من السهل على بني أمية التحرر من عقليتهم التجارية القديمة والتخلص منها ومن نزعهم الشديدة للربح والاكتساب، فقد انعكست على سياستهم المالية مع الرعية ... فتورطوا بذلك في جمله من الأخطاء والممارسات السلبية، ولم يكن لهم أي اهتمام، فيما يبدو، بقضايا شعوب المغرب الإسلامي لأن أكثر اهتمامهم كان منحصرا في مزيد من المال، لتطويع المعارضين وضرب

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 79.

(2) - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص 36.

(3) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 12.

المناوئين"(1).

واستمرت هذه السياسة الاقتصادية الجائرة في العصر العباسي مع " تفاقم تكوين الإقطاعات المعروفة بـ (الصوافي) المملوكة للولاة والعمال وكبار القواد فضلا عن أبناء البيت العباسي ... كما توسع الخلفاء في منح تلك الأراضي لمن كان لهم الفضل في إقامة دولتهم أو ساعد في الحفاظ عليها ... وحسبنا في هذا الصدد ما كان يملكه يزيد بن حاتم من إقطاعيات ومراعي شاسعة في أخصب نواحي إفريقية"(2). هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه البلاد تعاني ضروب القحط و المجاعات.

كما لم يتورع الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عن طلب المزيد من السبي من ولاته ببلاد المغرب.

قصارى القول، أنه لا السياسة الأموية ولا العباسية تحرت العدالة والمساواة والاحترام في تعاملها مع المغاربة فكلاهما وجهان لعملة واحدة. وسنلقي الآن إطلالة كرونولوجية، سنتتبع من خلالها بعض فترات حكم الولاة لنحاول الوقوف عند نماذج حية من التجاوزات التي اقترفها هؤلاء الولاة إن على المستوى العنصري أو الاقتصادي أو غيرها.

وسنبدأ بلمحة موجزة جدا عن فترة ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير، لكنها لمحة كفيلة بأن ننطلق منها لتقييم شخصية وطريقة حكم عبد العزيز بن موسى الذي كان عاملا

(1) - عبد العزيز فلالي، المظاهر الكبرى في عصر الولاة، ص 49.

(2) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 142-141.

على الأندلس، التي رأينا سابقا أنها كانت تابعة لولاية المغرب التي كان عليها واليا آنذاك عبد الله بن موسى بن نصير.

"فقد كان عبد العزيز بن موسى، بعد خروج أبيه، قد تزوج امرأة نصرانية ... يقال أنها ابنة لدريق ملك الأندلس الذي قتله طارق ... فلما دخلت عليه قالت: مالي لا أرى أهل مملكتك يعظمونك، ولا يسجدون لك كما كان أهل مملكة أبي يعظمونه ويسجدون له. فلم يدر ما يقول لها فأمر بباب فنقب له في ناحية قصره وجعله قصيرا وكان يأذن للناس فيدخل الداخل إليه من الباب حين يدخل منكسا رأسه لقصر الباب، وهي في موضع تنظر إلى الناس منه فلما رأت ذلك قالت لعبد العزيز: الآن قوي ملكك"(1).

بعد هذه الإشارة البسيطة، من الأندلس، نعود إلى المغرب، لنلقي إطلالة على فترات حكم ولاته، ونستهل عملنا بفترة ولاية محمد بن يزيد القرشي " الذي خرج وهو يقول: مالي عذر إن لم أعدل"(2)، وكأنه يعلم مسبقا النهج الذي سينهجه مع سكان المغرب، و هذا أمر بديهي لأنه كان على إطلاع ومعرفة بالسياسة الأموية العامة.

وشكلت ولاية يزيد بن أبي مسلم، قمة الاستبداد بالمغاربة على جميع المستويات فقد كان هذا الرجل "ظلوما غشوما"(3) على حد تعبير بن عذارى، كما " كانت فيه كفاية و نهضة قدمه

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 84.

(2) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 58.

(3) - ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 48.

الحجاج بسببهما"(1)، وما يبين ويؤكد الأوصاف التي ألصقها ابن عذارى بالرجل، أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، بلغه أن يزيد بن مسلم بن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين، فكتب إلى عامل الجيش برده وقال: إني أكره أن أستنصر بجيش هو فيهم"(2). " وكان يزيد بن أبي مسلم قد عمل مدة طويلة في العراق تحت نظر الحجاج بن يوسف الثقفي، فتشبع بمناهجه في الحكم(3)" خصوصا وأنه كان صاحب شرطته "وأمين سره، فحذا حذوه في سوء معاملة الرعية والقسوة عليها"(4) "واستبد مع البربر، وفرض عليهم الجزية واستخف بهم، واشتد عليهم في جمع أموالهم و سبي نسائهم، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم"(5).

ومن مظاهر استبداد و تعسف يزيد بن أبي مسلم " أنه أخذ موالي موسى بن نصير من البربر فوشم أيديهم، وجعلهم أخماسا، وأحصى أموالهم وأولادهم ثم جعلهم حرسه وبطانته"(6). "وقام خطيبا على المنبر فقال: أيها الناس إني قد رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم، كما تفعل ملوك الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره حرسي،

(1) - الناصري، الاستقصاء، ج1، ص 102.

(2) - نفسه.

(3) - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص 131.

(4) - عبد العزيز فلالي، م. س، ص 34.

(5) - عبد العزيز سالم، م. س، ص 274.

(6) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 77.

ليعرفوا في الناس بذلك من غيرهم ... فلما سمع ذلك حرسه، اتفقوا عليه وغضبوا وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، ودب بعضهم لبعض وتعاقدوا على قتله، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه"(1). "فقد رفضوا هذا الإجراء واعتبروه استخفافا بهم وضربا من المذلة والخنوع ورأوه بعيدا عن تعاليم الإسلام وتقاليده ومبادئه"(2). "كما فرض يزيد بن أبي مسلم الجزية على من أسلم من أهل المغرب، وقام برد من أسلموا إلى قراهم"(3) ويبرز سعيه الكبير لجمع الغنائم أنه " غزا صقيلية سنة 101 هـ في وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا"(4).

"والظلم الذي حاق بالبربر على يد يزيد بن أبي مسلم، إنما تم تحت سمع الخلافة وبصرها، فالخليفة يزيد بن عبد الملك، عرف بالطمع والجشع وحب المال الذي جمع له عماله منه ما لم يجمع لأحد من قبل، وإذا كان الحجاج بظلمه في المشرق قد أشبع نهمه، فإن يزيدا في المغرب قدم له المزيد ولا غرو، فقد قال فيها عبارته الشهيرة: ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهما فوجد دينارا"(5).

وكما رأينا سابقا، انتهى يزيد بن أبي مسلم مقتولا على عتبة المسجد، فأرسلت الخلافة واليا جديدا، "بيد أن تغيير الحاكم

(1) - الرقيق القيرواني، م. س، ص 64-63.
(2) - عبد العزيز فيلالي، م. س، ص 42.
(3) - ابن خلدون، العبر، ج 4، ص403 .
(4) - محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 29.
(5) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي ، ص 131.

لم يؤد بالضرورة إلى تعديل في الاتجاه العام للسياسة الأموية، لأن الوالي الجديد وهو من أركان الأرستقراطية التقليدية في هذا النظام كان حريصا على مصالحه الذاتية المتأقلمة حتى الانصهار مع خليفة له قبلية متعارضة، وهذا ما جعل من السنوات السبع التي قضاها بشر بن صفوان في السلطة استمرارا للنهج الذي بدأ مع سلفه في استعداء البربر و ازدياد نفورهم من الحكم الأموي"(1). وفي البحث عن الأموال والمغانم والسبي". فقد وفد إلى يزيد بهدايا كان أعدها له، حتى إذا كان ببعض الطريق لقيته وفاة يزيد... فقدم بشر بتلك الهدايا على هشام بن عبد الملك، فرده على إفريقيا"(2). " وأقره على عمله بالمغرب فقدمها"(3). " ثم غزا صقلية بنفسه سنة تسع ومائة، فأصاب سبيا كثيرا، ورجع إلى القيروان"(4). " بعد أن هلك من جيشه خلق كثير" وما لبث أن هلك هو الآخر على فراش المرض ليخلفه القيسي المتعصب عبيدة بن عبد الرحمان السلمي" الذي تبلورت معه مرحلة جديدة من المجابهة بين الأمويين والبربر فكانت سياسته الاقتصادية الأداة التي دمرت ما تبقى من مظاهر التعايش بين الطرفين حيث اقترنت بالأساليب القمعية المتطرفة"(5). " فقد كان شديدا في معاملته للبربر، فأسرف في غزو قبائلهم وسبي نسائهم وبالغ في التعسف معهم والجور

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 352.
(2) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 91-90.
(3) - عبد العزيز سالم، م. س، ص296.
(4) - الناصري، الاستقصاء، ج 1، ص 104.
(5) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 352.

بهم"(1)، كما واصل البحث عن المغانم والأموال في الجزر البحرية، " ويفهم من استمرار الغارات البحرية طوال السنوات الخمس التي وليها عبيدة بن عبد الرحمان السلمي أن الإلحاح بالحرب الدائبة على بلاد الروم فيما وراء البحر كان قد أصبح سياسة مستقرة لا يجوز الإخلال بها "(2)، " فقد أرسل المستنير بن الحبحاب غازيا إلى صقلية فأصابتهم ريح ففرقتهم"(3)، ثم أرسل عبد الرحمان بن عبد الله إلى إفرنجة " فغنم غنائم كثيرة"(4) " أما سردانية فلقد خصصت لها حملة منفردة في صيف سنة 114هـ"(5) وجمع عبيدة من كل هذه الغزوات ومن استبداده بالمغاربة غنائم كثيرة، فقد "كان ما خرج فيه من العبيد والإماء من الجواري المتخيرة سبع مائة جارية، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية"(6) "مما يذكر بأيام الفتح الأولى، قبل دخول البلاد في حوزة الإسلام، عندما كان المغرب أرض المغانم الثمينة والسبي الجميل"(7) "واعترف السلمي أخيرا بإخفاق مهمته، قبل أن يصيبه ما أصاب الوالي الأسبق يزيد بن أبي مسلم، فتنحى طوعا عن منصبه وغادر القيروان"(8) ليعين هشام بن

(1) - عبد العزيز سالم، م. س. ص 296.

(2) - سعد زغلول، م. س. ص 276.

(3) - ابن عبد الحكم، م. س. ص 92.

(4) - نفسه.

(5) - سعد زغلول، م. س. ص 277.

(6) - ابن عبد الحكم، م. س. ص 93.

(7) - سعد زغلول، م. س. ص 278.

(8) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في ق 1هـ ص 352.

عبد الملك والي جديد، لن يكون إلا عبيد الله بن الحبحاب، الذي كان واليا على مصر" ويبدو انه كان مقربا من الخليفة وحائزا على ثقته فجاء إلى القيروان"(1) ليوطد أواصر قرابته مع الخليفة، و لن يتأتى له ذلك إلا بتقديم أكبر قدر ممكن من الهدايا والأموال والسبايا، خصوصا وأن عبيد الله كان يتميز " بشدة ازدرائه لكل ما ليس بعربي، فكان لا يرى للقبط والبربر والأسبانيين وكافة الشعوب المغلوبة التي قل أن يعتبرهم آدميين، من عمل في هذه الأرض إلا الكد من أجل ثراء الشعب العظيم، وحدث _ وقت جبايته خراج مصر _ أن ضاعف عشرين مرة الجزية التي كان يدفعها القبط المسالمون بطبيعتهم والذين لم يمتشقوا السلاح أبدا، منذ لأن صاروا تحت الحكم الإسلامي، فضجوا من هذا الجور وهبوا بأجمعهم ثائرين"(2) وكان تغييرا شكليا فقط، وقد واصل نفس السياسة مع البربر، وهي السياسة التي تهدف إلى إرضاء الخلافة، كيفما كانت الطرق في ذلك، خصوصا وأن هؤلاء الخلفاء " كانوا يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة"(3) "فبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازيا إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه وأصاب

(1) - نفسه، ص 353.

(2) - دوزي، م. س. ص133.

(3) - ابن عذاري، م. س. ص 52.

من الذهب والفضة والسبي أمرا عظيما ولم يدع في المغرب قبيلة إلا دخلها فملئوا منه رعبا وخوفا، وسبي من قبيل من قبائل البربر يقال لهم مسوفة في طريق بلاد السودان نساء لهن جمال وكان لهن أثمان جليلة لم ير مثلها ورجع سالما حتى قدم على ابن الحبحاب"(1)، وثقلت وطأة عماله جملة، بما كانوا يطالبون به من الوصائف البربرية مثل الأدم العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب فكانوا يتغالون في جمع ذلك حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سالخها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثير عيثهم في ذلك بأموال البربر"(2)، " ويذكر الطبري أن عمال الحبحاب كانوا يعمدون إلى الماشية فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، و معنى ذلك أن ولاة بني أمية هددوا البربر الرعاة في مصدر رزقهم من الأغنام والماشية"(3).

" فقد رأى عبيد الله بن الحبحاب شدة الإقبال في العاصمة على صوف الخراف العسلية الذي تصنع منه الملابس الناصعة البياض فقد اغتصب من البربر أغنامهم و ذبحها جميعا على الرغم من انه كان قل أن يتوفر مطلبه من غير واحد من المائة منها، أما البقية الأخرى فهي إما جرداء أو قصيرة الصوف والتالي غير مفيدة للوالي، ولم يكتف بتجريد البربر من قطعانهم وهي

(1) - الرقيق، م. س، ص 72.

(2) - الناصري، م. س، ص 106.

(3) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 140.

المصدر الرئيسي لثروتهم أو بمعنى أصح وسيلة معيشتهم الوحيدة، بل اغتصب أيضا نساءهم وبناتهم وأرسلهن إلى الشام ليخدمن في القصور، وذلك لشدة ولع العرب بنساء البربر اللائي عرفن على الدوام بأن جمالهن يبز جمال العربيات"(1).

أما عمر بن عبد الله المرادي، عامل ابن الحبحاب على طنجة وما والاها، " فقد كان أشد هؤلاء العمال ظلما واستبدادا(2)" فقد أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين ... فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد"(3) بحيث "خرج ميسرة المدغري وقام على عمر بن عبد الله المرادي فقتله"(4) ثم تطورت الأحداث لتصبح تدريجيا ثورة حقيقية، انطلقت في أواخر الدولة الأموية، واستمرت طوال حكم ولاة الدولة العباسية، وهي ثورة كانت مبررا ارتكبت به الخلافة جرائم حقيقية وهذه المرة على المستوى العسكري، فالخليفة " هشام بن عبد الملك عزل بن الحبحاب عن إفريقية وما وراءهما من المغرب وولى عليهما كلثوم بن عياض القيسي وأمره بقتل البربر"(5) "وقال: اقتل أولئك الرجال الذين كانوا يفدون علينا من المغرب، أصحاب الغنائم قيل: نعم يا أمير المؤمنين قال: والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن إليهم جيشا أوله

(1) - دوزي، تاريخ مسلمي أسبانيا، ص 144

(2) - عبد العزيز سالم، م. س، ص 299.

(3) - ابن عذاري، م. س، ص 52.

(4) - الرقيق، م. س، ص 73.

(5) - ابن القوطية، م. س، ص 39.

عندهم وآخره عندي. ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي"(1) ويبدو من خطاب هشام بن عبد الملك، إلى واليه كلثوم بن عياض، عنصرية جامحة تجاه البربر، الذين سيواجهون مرة أخرى مؤسسة عسكرية قوية أثناء ولاية عبد الرحمان بن حبيب الذي "أمعن في قتل البربر وأمتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا، يؤتي بالأسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله، فيقتله"(2).

كل هذه التجاوزات التي شملت الجانب العنصري والاقتصادي والأخلاقي والعسكري والإنساني، تواصلت بلا هوادة أثناء الحكم العباسي بالمغرب، فهذا أبو جعفر المنصور يطلب من واليه عبد الرحمان بن حبيب المزيد من السبي، فيجيبه هذا الأخير قائلا: "إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها"(3) لكن الحقيقة أن عبد الرحمان بن حبيب واصل سياسة البحث عن الغنائم والسبايا بحيث " غزا تلمسان ... فظفر بما لم يظفر به أحد قبله، ثم بعث إلى إفريقية فأتى إليه من سبيها بما لم يؤت بمثله من بلد ودوخ المغرب كله، وأذل من به من القبائل... وتداخل جميع أهل المغرب خوفه والحذر من سطوته"(4)، وواصل الولاة بعده نفس السياسة، على أن أهم ميزة تميز بها عصر الولاة العباسيين، هو أنه كان عصر الثورات المتواصلة التي انطلقت

(1) - الرقيق، م. س، ص 75.

(2) - ابن عذاري، م. س، ص 61.

(3) - الرقيق، م. س، ص 93.

(4) - الرقيق، م. س، ص 95.

منذ أواخر الدولة الأموية ولم تنتهي إلا بتحقيق الاستقلال عن المشرق. لذلك فسنكتفي بهذه اللمحات عن حقيقة حكم الولاة وتجاوزاتهم، ونعتقد "أن الأحداث المعروضة على الرغم من ظآلتها كمادة تاريخية فإنها تسوغ الرأي السلبي في تقويم الحكم الأموي، وتؤكد م أشرنا إليه في وقت سابق، و هي أن المسألة لم تعد دعوة دينية، بل تحولت إلى دعاية شبه مبرمجة لا تتوخى سوى النهب"(1)، وهي الدعاية التي تواصلت بنفس الطريقة، أثناء التواجد العباسي في المغرب.

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 79.

المبحث الرابع:

ثورات المغاربة ردا على تجاوزات الولاة:

عندما نطلع بعين موضوعية، على السياسة التي اتبعتها الدولة الأموية بشكل خاص ومن بعدها الدولة العباسية، في بلاد المغرب، وهي السياسة التي ابتعدت كثيرا عن القيم الحقيقية والمبادئ النبيلة للدين الإسلامي، وعندما نطلع على مجريات أحداث بلاد المغرب في هذه الفترة، وقبلها، نكون قد أدركنا باليقين المطلق أن المغاربة لن يتركوا هذه الأحداث تمر دون أن يعبروا عن رأيهم وموقفهم، تعبيرا ثوريا ايجابيا كما كان شأنهم دائما فقد رأينا لمحات من ثوراتهم، على تعسف البيزنطيين و الرومان، ثم ردهم على تجاوزات بعض قادة الفتح، وهو الرد الذي عبر عنه كل من كسيلة و داهيا.

أما أثناء حلم الولاة فقد كانت بوادر الثورة تلوح في الأفق منذ البداية، بحيث قتل يزيد بن أبي مسلم على يد حرسه من البربر بعد ما أظهر تجاههم من عنصرية واضحة فيما اضطر عبيدة بن عبد الرحمان السلمي إلى مغادرة البلاد خوفا على مصيره.

على أن الاندلاع الحقيقي للثورة كان في ولاية عبيد الله بن الحبحاب، نتيجة الضغط الكبير الذي مارسه هذا الوالي في سياسته تجاه المغاربة، الذين ضاقوا من السياسة الأموية

ولم يبق أمامهم سوى الحل الثوري للحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

" فكان تحرك البربر في عهد هشام، جزءا من التحرك الثوري العام الذي اجتاح ولايات الدولة الأموية، من المغرب حتى أواسط آسيا في المشرق، مرورا بالانتفاضة العلوية الأخيرة في العراق، وإذا كانت قوات الخلافة قد نجحت في تجميد الانفجار وتطويق تمرد الترك ... وإذا كانت هذه القوات نفسها قد سحقت في وقت لاحق حركة زيد بن علي، وهي مجرد مشروع للثورة، لم يكتمل بعد، فإن التحدي الكبير الذي جابه النظام المركزي في أقاصي المغرب كان من العنف بحيث أن محاولاته التأديبية، باءت في معظمها بالفشل"(1). فسكوت دوي الثورة كان مؤقتا فقط، لأنها تواصلت أثناء التواجد العباسي في المغرب وأسفرت عن تكوين دول مستقلة متعددة.

وقبل البدء العسكري للثورة، عبر المغاربة عن نضجهم "واتزانهم في معالجة الأمور الساخنة بحكمة، وعدم تسرعهم في الاندفاع نحو استعمال العنف، فآثروا الاتصال بالخليفة نفسه لاستطلاع رأيه في تصرفات الولاة، وإطلاعه على ما نال الرعية منهم ومعرفة وجهة نظره في الانتهاكات التي يرتكبها عماله وولاته، فشكلوا وفدا من بعض شيوخ القبائل المغربية ووجهائها، بلغ عددهم أكثر من عشرين شيخا برئاسة ميسرة المطغري"(2). "ويتضح من عدد الوفد أهميته وخطورة المهمة

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 349.

(2) - عبد العزيز فلالي، م. س، ص 53-52.

التي تكفل بها"(1). وتوجه الوفد إلى دمشق راغبا في مقابلة الخليفة هشام لمطالبته بإصلاح الوضع في المغرب. ولكنهم لم يتمكنوا من الدخول إليه. إذ منعهم كاتبه وحاجبه (الأبرش) " عند ذلك دار حوار بينه وبينهم. وتركوا له شكوى من عدة نقاط يقدمها للخليفة. وسجلوا أسماءهم وألقابهم في عارضة ليطلع عليها الخليفة هشام ذاته"(2).

والأكيد أن الوفد كان بليغا في التعبير عن الأوضاع التي آل إليها المغرب وعبر بطريقة واضحة عن مطالب أهله. وخاطب أعضاؤه الحاجب الأبرش خطابا يحمل الكثير من الأسى والألم من جراء ما اعتاد الولاة على اقترافه في حق المغاربة. ومما جاء في الشكوى التي قدمها الوفد ما يلي: " أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده. فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: هم أحق به. فقلنا: هو أخلص لجهادنا لأنا لا نأخذ منه شيئا. إن كان لنا فهم منه في حل. وإن لم يكن لنا لم نرده. وقالوا: إذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وأخر جنده. فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد. ومثلكم كفى إخوانه. فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم. ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا. فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد. فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك. وخليناهم وذلك. ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة. ونحن مسلمون. فأحببنا أن نعلم. أعن رأي أمير المؤمنين

(1) - المختار العرباوي. م. س. ص 56.

(2) - عبد العزيز فلالي. م. س. ص 54.

ذلك أم لا؟"(1).

"و عندما طال مقام الوفد المغربي. بقيادة ميسرة في دمشق. ونفذت نفقاتهم وخاب رجاؤهم في مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك"(2). عادوا إلى بلادهم. " وأدرك ميسرة وجماعته أن الخلافة متواطئة مع عمالها فيما حدث بالمغرب من ظلم وجور وعقدوا العزم على الثورة"(3). بعد أن كانوا " من اسمع أهل البلدان وأطوعهم"(4).

وبويع ميسرة بالإمامة على إثر عودته. "وسرعان ما انضمت إلى قبيلته جميع قبائل المنطقة من غمارة ومكناسة وبرغواطة"(5) "فكانت ثورة البربر بالمغرب سنة 122. وكانت وقائع كثيرة. يطول ذكرها"(6) على حد تعبير ابن عذاري.

"فخرج ميسرة المطغري. ووثب على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله ... وصار إلى السوس وهاجم قوات إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب. فهزمه وقتله وأضطرم المغرب على إثر ذلك نارا"(7).

"هكذا نجح الثوار في هذه المعركة الخاطفة التي تعتبر ردا

(1) - الطبري. تاريخ الرسل والملوك. ج4. ص 255-254.

(2) - عبد العزيز فلالي. م. س. ص 55.

(3) - محمود إسماعيل. الخوارج في المغرب الإسلامي. ص 50.

(4) - الطبري. تاريخ الرسل والملوك. ج 4. ص 254.

(5) - سعد زغلول. م. س. ص 288.

(6) - ابن عذاري. م. س. ص 52.

(7) - عبد العزيز سالم. م. س. ص 305.

عنيفا وقويا تجاه أخطاء الإدارة المركزية ولاسيما في المناطق البعيدة عن السلطة الأموية، حيث تقطن الفئات الاجتماعية الريفية التي تعيش على هامش الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية رغم ما تتميز به من هياكل قبلية كبيرة فكانت انتفاضتهم سريعة وخاطفة، استطاعوا من خلالها أن يحكموا قبضتهم على المنطقة في فترة زمنية محدودة وأزالوا مظاهر الحكم الأموي منها، وبرز بذلك أسم ميسرة وأصحابه في الأفق، وعلا نجمهم في سماء المعارضة المسلحة ضد السلطة المركزية المتهمة بالظلم والجور"(1). " ولقد روعت هذه التطورات ابن الحبحاب، لاسيما بعد مقتل ابنه حاكم السوس فاستبد به الغضب وعول على الانتقام الفوري، غير أنه كان في وضع لا يشجعه على اتخاذ قرار من هذا النوع، حيث الجزء الأكبر من جيشه في مهمة خارجية، فحاول ما استطاع حشد ما تبقى من طاقاته بقيادة خالد بن أبي حبيب وإرسالها إلى السوس الأدنى، في الوقت الذي استدعى قائده حبيب بن أبي عبيدة للالتحاق بدوره في منطقة التمرد ... وعلى مقربة من طنجة مركز الثورة تعرض الجيش الأموي لهزيمة ساحقة في معركة وادي شلف، حيث قضي على الحملة بمن فيها القائد خالد بن أبي حبيب، وهي معروفة في مصادر المؤرخين التقليديين بـ (غزوة الأشراف) وذلك لما أسفرت عنه من تضحية جماعية ونكبة جسيمة حلت بالعرب المقاتلين"(2).

(1) - عبد العزيز فلالي، م. س، ص 56.

(2) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 355-354.

وبموازاة مع ذلك، " أقدم بربر الأندلس على الثورة حينما بلغتهم أنباء ثورة أبناء عمومتهم على العرب في افريقية، تضامنا معهم، وشجعهم على إعلان ثورتهم ما أحرزه بربر المغرب من انتصارات على جيوش الخلافة الأموية ... لاسيما أن بربر الأندلس كانوا ساخطين على العرب لما استأثروا به دونهم من خيرات البلاد والتسود والحكم"(1) وهكذا اجتمع بربر الأندلس "ووثبوا على أميرهم عقبة بن الحجاج السلولي فقتلوه"(2).

وأسفرت هزائم العرب في المغرب والأندلس عن تمرد العرب بالقيروان على واليها عبيد الله بن الحباب وتنحيته عن الولاية، فاستدعاه الخليفة هشام بن عبد الملك بعد أن غضب غضبا شديدا لما حل بالعرب، وعزم على الانتقام من البربر " فبادر إلى إعداد حملة من الجيش الشامي الأداة العسكرية الرئيسية في دولة الأمويين"(3). " واختار لقيادته، ولولاية إفريقية شيخا من أعيان القيسية الخلص، هو كلثوم بن عياض القشيري وجعل له نائبين يتوليان الإمارة بالتوالي إذا ما حدث له حدث هما : ابن اخيه بلج بن بشر القشيري، وثعلبة بن سليمة العاملي"(4).

وخاطب الخليفة هشام، قائد جيشه قائلا: " أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يفدون علينا من المغرب، أصحاب الغنائم، قيل: نعم يا أمير المؤمنين، قال: والله لأغضبن لهم غضبة عربية،

(1) - حمدي عبد المنعم محمد حسين، ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ص4.

(2) - الرقيق، م. س، ص 75.

(3) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 255.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 293.

ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي"(1).

ويبدو من خطاب الخليفة، العنصرية الواضحة التي كان يضمرها للبربر المغاربة، والتي سيسلكها وسيعبر عنها أيضا قائد جنده كلثوم بن عياض، تعبيرا عسكريا عنيفا، خصوصا وأن الخليفة أذن له "باستباحة ذمار جميع النواحي التي يستولي عليها، وقتل كل من يقع في يديه من العصاة"(2).

"وهكذا استعدت الجيوش الخلافية: من الجند النظاميون والمتطوعة للمسير من الشام إلى إفريقية... وخرج كلثوم بأهل الشام ومعه بلج على مقدمته من الخيالة وعندما دخل مصر انضم إليه من جندها ثلاث آلاف ... وأخذت قوات كلثوم تزداد عددا على طول الطريق نحو المغرب بمن انضم إليه من جند برقة وطرابلس، فتضخم تضخما عظيما حتى بلغ عدده سبعين ألف رجل"(3).

ورغم كثافة الجيش الذي أرسل إلى المغرب لإخماد ثورة البربر، فإن الانسجام بين عناصره كاد يكون مفقودا " وهذا ما أوقع الجبهة في صراع مكبوت تجاوز الخلفية القبلية إلى النزعة الإقليمية بين مقاتلي الشام تحت قيادة كلثوم بن عياض و بين مقاتلي المغرب بقيادة حبيب بن أبى عبيدة ... فقاتل هذا الجيش رغم كثافته ببطء وتثاقل مما أدى إلى تكرار التجربة والهزيمة معا

(1) - الرقيق، م. س، ص75.

(2) - دوزي، م. س، ص 150.

(3) - سعد زغلول، م. س، ص 294-293.

و لكن بنتائج أثر خطورة"(1) بحيث أسفرت معركة بقدورة سنة 123هـ عن انهزام جيش كلثوم "الذي آل مصيره إلى ثلث مقتول، و ثلث منهزم وثلث مأسور، على حد قول صاحب الأخبار المجموعة"(2).

"وبعد معركة سبو، انتزع البربر زمام الموقف من العرب الذين تراجعوا عن المغربيين الأقصى والأوسط وانكفأوا داخل القيروان ... و في ذلك الوقت كانت الثورة قد بلغت أقصى مراحل انتشارها وقطعت شوطا كبيرا في محاولتها الاستقلالية(3)" فلم يؤثر عليها الانهزام في معركة الأصنام والقرن." ذلك أن معركة الانتقام لم تكن على مستوى هزيمتي (شليف) و (سبو) ... والدولة الأموية لم تعد قادرة على استرجاع مواقعها السابقة في المغرب، فقد انتقل الصراع الدموي إلى العاصمة دمشق وفشل خلفاء هشام خلال السنوات القليلة المتبقية من عمر هذه الدولة في إنقاذ الوضع العربي الذي تدهور بصورة مذهلة، ليس فقط في المغرب ولكن في بقية الولايات، غير أن هذا الإقليم استرد الجزء الأكبر من شخصيته التاريخية حين ربح معركة الحكم الذاتي، رغم التجديد الذي طرا على مركزية النظام وانتقال السيادة إلى الأسرة العباسية"(4)، فقد تواصلت الثورات على امتداد مكاني وزماني اكبر، وتمكن الثوار ولفترات

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 257.

(2) - محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، ص 53.

(3) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 258.

(4) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن 1هـ ص 259.

متعددة من دخول القيروان والسيطرة عليها، وإلحاق هزائم فادحة بقوات الخلافة، بل وإرغامها في نهاية المطاف على الرحيل النهائي. هذا على المستوى العسكري.

على المستوى السياسي، عجلت هذه الثورات بانفصال المغرب عن المشرق وكانت بوادر الانفصال قد ظهرت منذ التواجد الأموي، ببروز مجموعة من الدويلات المستقلة، على أن الولادة الفعلية والحقيقية للدولة المغربية ستبدأ مع المرابطين وما جاء بعدهم من الدول: (الموحدون، المرينيون، الوطاسيون، السعديون، العلويون).

وثورة بهذا الحجم، وبهذه الأهمية التاريخية الكبرى، وبهذه النتائج، بالنظر إلى أنها أدت إلى بروز قوة في الغرب الإسلامي تظاهي وتنافس الدولة الإسلامية في المشرق.

ثورة بهذه القوة لابد أن تثير الكثير من الجدل والنقاش والاختلاف، والتساؤل على الكثير من المستويات، على أن السؤال الأساسي والجوهري والضروري أيضا هو:

ما هوية هذه الثورة ؟

يعتبر الكثير من الباحثين أن الثورات التي قامت في المغرب ضد الدولتين الأموية والعباسية كانت ثورات خارجية انطلقت وجسدت فكرة وإيديولوجية الخوارج، الداعية إلى الثورة على أئمة الجور وعدم الخضوع للسلطة الظالمة، فيتحدثون انطلاقا من ذلك عن انتصارات للخوارج الإباضية أو الصفرية على جيوش الخلافة، فيحولون بذلك الثورة إلى صراع إيديولوجي ديني بين

الإسلام الرسمي للخلافة وبين الإسلام الثوري الذي يجسده مذهب الخوارج، ويغيبون الأسباب والمظاهر الحقيقية والتاريخية لهذه الثورة ويلغون المغاربة كعنصر فاعل وأساسي فيها، فيلبسونها، انطلاقا من كل هذا لباسا غير لباسها وهوية غير هويتها. لأن الحقيقة التاريخية تثبت أن هذه الثورة كانت ثورة مغربية صرفة أشعل فتيلها المغاربة وكانوا بمثابة الحطب الذي احترق فيها وسنبين ذلك انطلاقا مما يلي:

اندلعت الثورة ردا على تجاوزات واضحة من طرف الولاة كانت بذلك ردا منطقيا.

قبل الاندلاع العسكري للثورة أرسل المغاربة وفدا إلى المشرق لإطلاع الخليفة على تجاوزات ولاته، وكان الوفد يتكون من زعماء و شيوخ القبائل البربرية المغربية وكان بقيادة شخصية مغربية هي: ميسرة المطغري.

تحدث الوفد باسم المغاربة وأبلغ شكاويهم إلى الخلافة ولم تكن هناك أية إشارة إلى الخوارج.

الوفد الذي توجه إلى المشرق هو الذي أعلن الثورة مباشرة بعد عودته.

نتائج الثورة أدت إلى استقلال المغاربة، وتكوين دول مغربية، ورغم بروز بعض الدويلات ذات الإيديولوجية الخارجية، فلم يكتب لها الاستمرار بحيث أن كل هذه الدول الصغيرة إن _ صح التعبير _ ستختفي لتفسح المجال أمام بروز الدولة المغربية الحقيقية والتي ستجمع شتات كل المغاربة وكل المغرب.

اعتنـاق المذهب الخارجي من طـرف المغاربة أيام الثورة لم يكن إلا مظلـة إيديولوجية وفكرية ضرورية ومهمة أيضا انطلاقا من مبـادئ الخوارج المعروفة: الدعـوة إلى العدالة، والمسـاواة، والثورة على الحكام الظالمين.

وهـذا بالضبط ما كان يبحث عنه المغاربة، بعد أن وقفوا على التناقض الصارخ بين مبادئ الإسلام الحقيقية وبين سلوكيات الولاة وخلفائهـم، فاعتناق المذهب الخارجي كان في حد ذاته ثورة على الإسلام الرسمي للدولة الأموية، والذي لحقه الكثير من التشويه.

واعتنـاق المذهب الخارجي من طرف المغاربة يذكرنا باعتناقهم " للدوناتية " أيام التواجد الروماني ردا على المسيحية الرسمية للدولة.

ثورات المغاربـة انطلقت قبل وصول الخوارج إلى المغرب، بحيث كانت ردا منطقيا على تجاوزات كثيرة منذ الفاتحين (ثورة كسيلة، ثـورة داهيا)، وتواصلت أثناء حكم الولاة، فكان مقتل يزيد ابن أبي مسـلم، و اضطرار الكثير من الولاة إلى الاستقالة والانسحاب كنتيجة للضغط الثوري الذي فرضه المغاربة.

إذن وجـود الخـوارج فـي المغـرب كان عاملا مسـاعدا و مهما على إذكاء ثورة منظمـة وذات مرجعية إيديولوجية، انطلاقا من مبادئهم الثورية، ليس إلا.

الخاتمة

الخاتمة:

إن موضوع دراستنا هذا، ما هو إلا نظرة فقط من بين الكثير من النظرات التي يمكن أن نتعامل بها مع تاريخ المغرب والإسلام في فترة الفتوحات. وهذا التعدد والتنوع في التعامل مع المواضيع التاريخية، هو من أدبيات وأساسيات علم التاريخ. فلا يمكن لأحد أن يحتكر الحقيقة التاريخية، ولا يحق لأي كان أن يدعي بنهاية التاريخ عنده إن على مستوى الكتابة أو على مستوى الوقائع والأحداث، كما فعل " افرانسيس فوكوياما ".

فالتاريخ تجدد متواصل وحركة دائمة، إن على مستوى الوقائع أو على مستوى التعاطي للكتابة التاريخية وإعادة بناء أو صياغة التاريخ.

وعلى هذا الأساس تعاملت مع الموضوع الذي اخترته، بحيث نظرت إلى تاريخ المغرب والإسلام بهذه الطريقة التي تكونت لدي طبعا بعد الإطلاع على الكثير من مصادر و مراجع هذه الفترة، ولم تأت اعتباطا أو صدفة.

فحاولت أن أبني نسقا تاريخيا قويا ومتكاملا، يزكيه ويؤيده ما اعتمدت عليه من مادة علمية متنوعة.

ولا أدعي أن هذه النظرة التي نظرت بها إلى تاريخ المغرب في

هذه الفترة هي الوحيدة فهناك عدة طرق أخرى لمباشرة الموضوع مباشرة تاريخية.

كما لا أدعي أن هذا البحث هو عين الصواب، لكن كل ما أدعيه هو انه محاولة لاستقراء تاريخ المغرب بالشكل الذي اخترته. وهو قابل للتطوير والتجديد والتحسين والتقويم والنقد، لكنه غير قابل تماما للإلغاء المطلق.